
بئر يعقوب
أحمد حسن
رواية
الكنزي
ALKANZY
ساحر الكتب

إهداء

إليك

بئر يعقوب

لم أكن يومًا أعلم المغزى من وجودي هنا.. ولكني علمت!

ويا ليتني ما علمت...

أعلم جيدًا أن هناك من سيأتي بعدي إلى هنا ويقرأ هذا الكلام؛ فقَدر الكثيرين الإتيان إلى هنا وبإرادتهم الحرة..

فيا من تقرأ كلامي المحفور هنا على الجدران: أعلم أني لم أكن هذا الشخص السيئ قط، لكني فقط فشلت في النجاة..

لا لم يصلوا إلى الآن. أخشى ـ فقط ـ أن أموت دون أن يعرف أحد أني لست ممن عوقبوا

فكل من هبط إلى البئر تم عقابه أما أنا......!!!

***

بحثت ليليان في جدران الغرفة الأربع على تكملة لهذه الرسالة، لكن يبدو أن هناك ما منع كاتبها من استكمالها.

ماذا حدث له؟ لا تدري.

كل ما كانت تفكر به هو كيفية النجاة من هذا البئر المخيف والعجيب، ترتجف ذعرًا من أن تأتي تلك العناكب السوداء المخيفة، التي تحمل رؤوسًا بشريةً صغيرةً بألسنتها الرفيعة، وصوتها المرعب تأتي في مجموعات منظمة.

تشعر أن ما تراه كابوسًا مزعجًا بحق، لكن لماذا لم تستيقظ منه؟

وهل هناك كابوس يستمر يومين؟

هنا شعرت بحشرجة خلفها، وصوت أقدام تلك العناكب تقترب، فقد أصبحت تميز أصوات أقدامها، ثم أعقبها فحيح مخيف.. ولم تشعر بشيء بعدها...

***

عم يعقوب في الثمانين من عمره، رجل عجوز طويل القامة ذو لحية بيضاء ناصعة البياض، ملامحه بريئة كالأطفال، عجوز ينتمي لهؤلاء الأشخاص الذين إذا رأيتهم تشعر أنك تعرفه منذ مولدك، ربما كان جدك أو والدك، أو ربما الشيخ الذي تصلي وراءه بالمسجد؛ إنه القبول الإلهي الذي يضعه الله بهؤلاء الأشخاص.

يلجأ إليه كل سكان هذه القرية الريفية الصغيرة؛ لعلاج أي مشكلة تواجههم، وعلاجهم من أي أمراض كأبرع طبيب في المدينة، هو لم يكن طبيبًا ولا يستخدم في علاجه أي عقاقير طبية بل يعتمد على تلك الأعشاب.

وذلك حيث لم يكن في الخمسينيات من القرن الماضي أي اهتمام من قِبل الريفين بالطب؛ لذا كانوا دائمًا ما يستخدمون الوصفات البدائية..

لم يعد أحد من عند يعقوب إلا ومعه دواء لما يشكي منه، سواء كان الدواء أعشابًا أو طعامًا معينًا أو شرابًا، لم يكن يداوي أمراضهم فقط، بل كان يفعل ما هو أكثر، فقد كانوا يقصون عليه مشاكلهم؛ فأصبح بئرًا لأسرارهم، كان بهذا الرجل ما يجعلهم يثقون به ثقةً عمياء، فقد كان يفعل كل ذلك بلا مقابل، أو لنقل

بمقابل زهيد للغاية - مع أي شخص كان - حتى ولو كان المقابل دجاجةً صغيرةً.

لا يتذكر أحد من أهل هذه القرية متى أتى يعقوب ولا من أين ظهر، ولكن المهم أنه هنا، حتى كبار القرية كالعمدة مثلًا، والأثرياء كانوا يأتون إليه؛ فقد كان بارعًا حقًا.

كان أهل القرية يتعاملون معه وكأن علاجهم وحل مشاكلهم فرض عليه، وكأنه خُلِق لخدمتهم، ولم يكن هذا الأمر يثير ضيقه، فقد كان ملاكًا أتى إليهم من السماء، وقد كان يعاملهم كأولاده؛ لم يستاء منهم يومًا، ولم يكره أحدًا منهم، أو يتعالى على أحد، كما لم يفش سر أحدهم يومًا.

كانت القرية مليئة بميسوري الحال، ممن يعمل الفلاحون لديهم، ولا يذهب أحد منهم قط إلى يعقوب؛ فهم يذهبون إلى القاهرة حيث العيادات والأطباء، على عكس العمدة، الذي يلجأ دائمًا إلى يعقوب، لكن بطريقة غير مباشرة، فقد كان يرسل له أي شخص من الغفر بشكواه حتى لو لم يكن ذلك الشخص مريضًا، وأصبح يعقوب حامل أسرار القرية رجالها ونسائها.

***

شاكر باشا من أثرياء هذه القرية.. بل يعتبر أكثرهم ثراءً، يمتلك أكثر من نصف أراضي القرية.. رجل بلا قلب، يعتبر الفلاحين حيوانات خُلقت لخدمته، ولِمَ لا وهم يعملون في أراضيه، ويتودد له كل كبار القرية رغم قسوته وتعاليه عليهم.

حفلات شاكر الصاخبة الأسبوعية كانت مثار حديث القرية كلها...

فقد اعتاد شاكر كل خميس أن يقيم حفلًا يدعو فيه أصدقاءه من ميسوري الحال، وكبار رجال القرية الأثرياء، ومعهم بالتأكيد عمدة القرية....

الكثير من الطعام الذي كان يتبقى من الحفل، كان يوزعه حراس منزله على الفلاحين الفقراء سرًا..... كان لشاكر ابنة واحدة مدللة تدرس في القاهرة بالجامعة، كانت مدللة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، لكنها لم تكن مثل والدها يومًا؛ فهي تتعامل مع جميع الفلاحين بود وحب، بل كثيرًا ما كانت تأمر سائق سيارتها أن يتوقف في الطريق وذلك لو رأت أي عجوز يجلس على قارعة الطريق، ويضع أمامه سلة من الخضروات، أو أي شيء ليبيعه؛ كانت تترجل من سيارتها، وتعطي له ما معها من أموال.... إنه التناقض الأبدي الذي يحدث كثيرًا بين شخص الأب وأبنائه... لذا كان كل أهل القرية يعشقون (نبيلة) التي كان لها نصيب كبير من اسمها...

لم ينجب شاكر سوى نبيلة.. كان يتمنى أن يرزقه الله ولدًا من زوجته (إلهام)، لكن لم يحقق الله أمنيته....

***

القاهرة ٢٠١٩

استيقظ حسام على صوت رنين منبهه في تمام السابعة صباحًا.. نظر إليه في ضجر، ثم أغمض عينيه مرة أخرى؛ أملا في أن تكون الخمس دقائق القادمة هي كل ما يحتاجها ـ فقط ـ ليستيقظ غير شاعرٍ بالنعاس، لكن ولا خمس ساعات كانت ستحقق له ما

يتمناه... مرت الخمس دقائق كأنها خمسة ثوانٍ... نهض وهو يغلق عين ويحاول الرؤية بالأخرى، يجر قدميه جرًا إلى الحمام، ثم ارتدى ملابسه سريعًا، وأحكم غلق ربطة عنقه؛ ليذهب إلى عمله في وزارة الري والموارد المائية... حيث يعمل هناك مهندسًا منذ عام أو أقل.

راتبه كمهندس لا يكفي حتى منتصف الشهر... فهكذا هي رواتب الوزارات، وبالأخص رواتب الموظفين أو بالأحرى المعينين الجدد.. كان من الممكن أن يترك حسام تلك الوزارة ويعمل في مجال آخر لولا صعوبة الأمر، ووجودها داخل الوزارة.....

تلك الفاتنة الرقيقة «ديانا».... تم تعيينها في نفس اليوم الذي عُين به حسام، ولم يبالغ حسام عندما قال لزميله في المكتب أنه يأتي ليعمل من أجلها، وليس من أجل ما يتقاضاه من ذلك الذي يسمى راتبًا ولا يكفيه حتى منتصف الشهر...

كانت ديانا مستمتعة باهتمام حسام بها، بل تعشق ذلك الاهتمام، فقد كانت متأكدة من أنه يعشقها بقوة، لكنها لم تبد له أي اهتمام. على الرغم من علمها بما يكنه لها. حتى وإن كانت معجبة به، بل يروقها للغاية، بسمات شخصيته الجذابة القوية. كلها صفات تجعل أي فتاة تقع في عشقه.....

لكنها مختلفة عن أي فتاة أخرى؛ فهي لا تتميز فقط بالجمال الصارخ فقط، بل كانت لديها شخصية ليست كباقي الفتيات... فهي شديدة الذكاء، تستطيع قراءة ما يحدث من حولها دون أن تلفت نظر أحد أنها تعرف ما يدور، لماحة، قوية الملاحظة.

هادئة لدرجة أنك من الممكن أن تكون معها في مكان واحد لمدة ست ساعات؛ ولا تشعر أنها معك.... وحيدة والديها يقولون إنها مدللة، لكنها ليست هكذا تمامًا.

جلال والدها يخاف عليها كثيرًا كأي أب يخاف على بنته، فما بالك لو كانت وحيدته.....

بالإضافة لذلك فإن جلال جذوره ريفية، من أسرة بسيطة في قرية صغيرة، درس بالقاهرة وتزوج بها، واستقر بها ولم يعد إلى قريته بعدها ولو لمرة واحدة؛ لذا أصبح قاهريًا لكن الجذور الريفية دائمًا ما تظهر في بعض المواقف..

***

فتحت ليليان عينيها ببطء شديد بعد فقدانها للوعي ـ من فرط رعبها وفزعها من تلك الكائنات ـ وجدت نفسها لا تزال بالغرفة المغلقة، كل ما تتذكره منذ هبوطها إلى البئر إنها عندما رفعت رأسها لأعلى لترى قمة البئر، التي هبطت منها لم تجد شيئًا سوى الظلام الدامس، رغم هبوطها في وضح النهار. أقنعت نفسها ـ بل حاولت بشدة أن تقنع نفسها ـ أن الليل أتى وهي في طريقها إلى القاع، ولكن كيف وقد هبطت وقت الظهيرة؟! حتى وإن أتى الليل فأين النجوم...... ثم بعد ذلك عندما عادت تستكشف بنظرها هذه البئر المرعبة التي اختفت منها الماء؛ وجدت أمامها غرف كثيرة مغلقة، أي بئر هذه؟!

بعد وصولها للقاع تحوّلت البئر إلى ممر طويل به تلك الغرف، التي تشبه ساحة السجون؛ فعلى جوانب هذا الممر تقع غرف

مقابلة لبعضها البعض، خطت أولى خطواتها بحذر شديد؛ لتعرف ما ينتظرها.

كان تعلو باب كل غرفة من تلك الغرف نافذة صغيرة جدًا، وينبعث منها ضوء أحمر وأصفر، يتغير كل ثانيتين أو ثلاث، يتحول من الأصفر إلى الأحمر تدريجيًا كأنها نيران تزداد ضراوة...

قوية ليليان ليست كالفتيات اللاتي تنهرن من موقف كهذا.. اقتربت من إحدى الغرف، ونظرت بتوجس، رفعت رأسها ببطء حتى وصلت عيناها لأول النافذة؛ ورأت تلك العناكب الصغيرة برؤوس بشرية تلتف حول جسد شاب في منتصف العشرينيات ذي شارب كثيف، قوي البنيان.

لم يكن ما تشاهده بالأمر الهين؛ أمسكت . بصعوبة . صرخة مكتومة كادت أن تخرج من أعماقها، أوقفتها عند شفتيها... لم تكن العناكب الغريبة هي كل ما يدهشها ويفزعها هنا، بل كان هناك ما هو أسوأ... فقد كان هناك فوق هذا الشاب كائن هلامي، طيف أسود كدخان يتشكل على شكل بني آدم، يدخل من فم الشاب ويخرج من عينيه، يتشكل في شكل أشكال بشرية كثيرة، كطفلٍ.. رجل...امرأة، وأحيانًا حيوانات.. قط ...كلب... أو حية.

والغريب في الأمر أن الشاب ساكن لا يتحرك، كأن ما تراه طقس يقوم به أحد السحرة الأفارقة.

وفجاه توقف الطيف عن اختراق الشاب، وسكنت العناكب، هنا تحركت ليليان وابتعدت عن النافذة وهي تركض بصمت، وما

أصعب هذا الركض الذي يجعلك تجري على أطراف أصابعك خشية أن يشعر بك أحد، سمعت من خلفها من يهمس بصوت خافت ويقول:

أنقذيني أرجوكِ، لكنها لم تلتفت ولم تصدق أذنيها، إن عقلها الباطن الآن يعمل وبكفاءة منقطعة النظير؛ فيهيئ لها أشياءً. كأن هناك جزءًا في عقلها اشتعل فجأة؛ فأصبح كل شيء متوقعًا، وكل مستحيل حقيقي، كانت هناك غرفة وحيدة فقط في الممر لا ينبعث منها ضوء؛ فتحتها بسرعة ودخلت وأغلقت وراءها الباب بإحكام..

***

طرقت «صفاء» باب بيت يعقوب؛ طالبةً منه أن ينقذها ويجد حلًا لمشكلتها، أو علاجًا أيا كان، لا يهمها المسمى كونه مرضًا أم مشكلة... كان يعقوب لا يترك دكة ردهة بيته... المكوّن من غرفة صغيرة وطرقة، يضع بها زير ماء، بيت ريفي صغير للغاية، زاهد هو في الحياة...

يجلس عاقدًا يديه أمامه، يُمسك سبحته بيده اليمنى، ويرتل آيات قرآنية بصوت خافت، مبتسم دائمًا لمن يأتي، لا يضجر حتى وإن كانت مشكلة صاحبها لا تستحق...

جلست صفاء أمامه في هدوء وسكينة تنظر إليه والدموع تتصارع للخروج من عينيها.. لكنها تتمالك نفسها، قالت له بهدوء، وهي تضع يدها على قدمها: لقد بلغت من العمر أربعين عامًا أو يزيد، تزوجت بعد أن بلغت الخامسة عشر، ولم أحمل لو لمرة

واحدة طوال هذه الفترة، جربت الكثير من الوصفات التي أشارت لي بها أمي وجدتي... كنت عندما أسمع من جيراني عن أي وصفة أو طريقة أقوم بتجربتها، لكن للأسف لم أحمل أيضًا، أرجوك يا سيدي.. أرجوك قل لي وصفة أو علاج.

لقد تزوج زوجي من سيدة أخرى؛ وأنجب منها الآن بنتين، ولكنه لم يتركني، وظل معي، فقد تزوج لأنه كان يريد الإنجاب.... أريد أن أكون أمًّا مثلما أصبح أبًا ولديه ذرية، أرجوك ساعدني.

كان يعقوب ينصت إليها باهتمام، وعلى ثغره ابتسامة صغيرة، ثم اعتدل في جلسته وقال لها: ما اسمك؟

. قالت وقد سالت دموعها في حربها مع عينيها... صفاء.

يعقوب: حسنًا يا سيدة صفاء انتظريني هنا دقيقة... ثم نهض، ودخل غرفته.

غاب خمس دقائق، ثم عاد وفي يده كيس صغير أسود اللون، ووضعه في يدها.

- وقال وهو يعود ليجلس مكانه: ستأكلين مما في هذا الكيس كل يوم قطعة واحدة، ثم تخلدي إلى النوم، لكن بشرط أن تستيقظي لتصلي الفجر.. ثلاثون يومًا لا تنسي أن تفعليها يومًا وإلا فلن تحل مشكلتك أبدًا..

مدت صفاء يدها وأخذت هذا الكيس كأنه كنز، قد حصلت عليه أخيرًا.

نهضت شاكرةً يعقوب وهي تبكي، وقبل أن تغادر تركت له بعضًا

من النقود البسيطة...... مر شهر كامل على ذهاب صفاء ليعقوب، التزمت بما قاله حرفيًا حتى إنها لم تعرف ماذا أعطاها، فقد كانت تتناول ما في الكيس دون معرفة كنهه.. وكانت تحرص على أن تصلي الفجر في موعده... وبعد مرور الشهر ذهبت إلى يعقوب مرة أخرى.. وقالت له:

- لقد فعلت ما أمرتني به، ماذا بعد؟

- قال لها: بإذن الله سيرضيك الله، لكن لا تيأسي أو تعترضي حتى ولو في حديث مع نفسك......

مر عام كامل، وأتت إليه صفاء، فهل تذكرها؟ كلا فلم يتذكرها. فعندما دخلت عليه ظلت تحاول معه ليتذكرها، وذلك وهي تحاول إسكات المولود الذي كانت تحمله بين يديها، وبصعوبة بالغة تذكرها، ابتسم وقبّل جبين المولود، وظل جالسًا كما هو.

هذه المرة تركت له على المنضدة التي أمامه أموالًا كثيرة.... فإدريس زوجها لم يكن يتخيل أن تنجب صفاء له بعد كل هذه السنين، والأهم أنها أنجبت له الولد الذي كان يتمناه كأي ريفي وقتها.

فولد يعني امتداد لاسم الأب، وسند في الكبر، هذه هي طقوس القرى..... لذا أصبح يهتم بها كما كان في السابق، يعطيها الكثير من الأموال، ولم تبخل هي على من ساعدها في ذلك، كادت فرحتها تجعلها تطير من على الأرض لا أن تمشي عليها... كانت تبدو في العشرين من عمرها وليست في الأربعين...

وبعد أشهر كانت هناك سيدة أخرى جميلة للغاية تنتظر يعقوب

في داره المفتوحة دائمًا، فقد كان نادرًا ما تجد باب داره مغلقًا، حتى عندما كان يدخل غرفته لينام لا يغلق بابها أبدًا... عاد يعقوب من مكان ما، ودخل داره، فوجد ضيفته تجلس في انتظاره فرحب بها.... وجلس أمامها ولم ينطق ببنت شفة كعادته مع من يأتي إليه، كان قليل الكلام للغاية، كمن يفكر ألف مرة في جدوى الكلمة التي ستخرج من فيه....

لم تنتظر السيدة الجميلة كثيرًا، فاعتدلت وقالت: أريد أن أنجب ولدًا مثل صفاء، أنا زوجة إدريس الثانية، وقد علمت أن صفاء أتت إليك؛ فأعطيت لها وصفةً ما أو دواءً لا أعلم؛ فأنجبت لإدريس الولد، ومنذ ذلك اليوم وهي وولدها كل حياته، أصبح لا يأتي إلينا أنا وبناته كثيرًا، بل ويطلب من الناس أن يطلقوا عليه أبا محمد.

نسي أن له بنتين وزوجة أخرى، كأنه أسقطنا من ذاكرته.. أريدك أن تساعدني يا يعقوب.. كما ساعدت صفاء.

***

عاد حسام إلى منزله في الخامسة مساءً بعد انتهاء عمله، وكان ساخطًا وممتعضًا كعادته منذ أن عمل في الوزارة؛ فهو يعمل عمل مكتبي يباشر ويتابع ما يقوم به المهندسون في مناطق العمل. لم يُخلق حسام لهذا العمل أبدًا، فهو يعشق العمل في ميدان العمل لا خلف مكتب، حيث يرتدي خوذته كمهندس مخضرم، ويعمل بيده.

لكن حداثة تخرجه هي ما جعلته يعمل كحلقة وصل ما بين

المواقع والوزارة، بالإضافة إلى أن هذه هي الوظيفة الوحيدة الشاغرة هنا، وإن رفضها فلن يجد عملًا بتخصصه وشهاداته، فهو يعتز جدًا بلقب بشمهندس حسام... كانت هذه هي الحسنة الوحيدة من عمله في الوزارة، فهو لا يملك سوى هذه الشقة المتوسطة الحال في منطقة غمرة في وسط البلد، تركها له والديه اللّذين توفيا في حادث سيارة.

بالكاد سيستطيع الزواج في هذه الشقة، وادّخار بعضًا من الأموال ليجهزها، ولكن كيف الوصول لهذا الحلم وراتبه لا يكفيه لمنتصف الشهر.... أعد كوبًا من الشاي، ووضعه في شرفة منزله وأشعل سيجارة، وجلس ينظر إلى الشارع ويفكر فيمن خطفت قلبه، وهل يصارحها بحبه أم ينتظر حتى يستطيع أن يدّخر بعضًا من الأموال ليستطيع الزواج بها.

وإذا انتظر فهل ستنتظر هي؟ أم يصارحها حتى لا ترتبط بأحد...

قطع تفكيره رنين هاتفه المحمول، فقد كان على الطرف الآخر صديقه أمجد الذي يعمل معه في الوزارة..

قال له: بالتأكيد جالس أنت تنظر للسماء وتعد نجومها وتفكر بها.

- هي تستحق يا صديقي.

- ضحك حسام وقال لا أحب المزاح في هذا الأمر، أنت تعلم أن هناك أشياء لا أقبل فيها المزاح كالسباب وديانا، ظننت هذا الأمر واضحًا لك.

- ضحك أمجد ضحكةً عاليةً، ثم قال وهو يحاول أن يكف عن

الضحك: أعلم أعلم يا صديقي... أحيانا أحب أن أثير ضيقك؛ لأستمتع بعصبيتك هذه. فأنت عصبي للغاية، ولكنك لا تفقد تحكمك أبدًا في ألفاظك.

المهم اتصلت بك الآن لأمر مهم للغاية، ولا يحتمل التأخير، ما رأيك في عمل ميداني كما تحلم، بالإضافة إلى أنك لن تترك عملك في الوزارة، ما هي إلا بضع أيام إجازة، لن تتجاوز الشهر، سننجز فيها مهمتنا؛ ونعود لعملنا دون أن يعرف أحد.

كان حسام ينصت باهتمامٍ شديدٍ يحاول أن يُجَّمع ما قاله أمجد ويربط بينه.

عمل ميداني.... لن يترك الوزارة.... وبالتأكيد أموال إضافية، بجانب تحقيق حلمه بمباشرة عمل على أرض الواقع.... أطلق حسام لخياله العنان وهو يسمع صوت أحد العمال وهو يقول له: ما رأيك يا بشمهندس حسام أنكمل الحفر. و....

- قطع أمجد خيال حسام؛ وأعاده إلى أرض الواقع، وهو يقول:

- ما رأيك يا حسام؟

وقبل أن ينهي أمجد جملته... رد حسام بمنتهى الحماس: موافق بالطبع، ولكن أين سنذهب، وما طبيعة العمل. و

- قال أمجد: غدًا بعدما ننهي عملنا؛ نجلس سويًا وأقول لك كل التفاصيل.

***

انتفض جلال فزعًا من نومه، وهو يلهث ويتنفس بصعوبة بالغة؛ فقد رأى الهول أمامه! نهضت زوجته فزعة من شهقته العالية وقالت: ما بك يا جلال؟!

التقط أنفاسه بصعوبة.. وقال: كابوس مفزع كأنه يحدث بالفعل وليس حلما.... وابتلع ريقه وأكمل: رأيت عناكب تلتف حول ابنتها ديانا و.... قاطعته زوجته وعلى وجهها علامات الذعر: لا... لا تحك.... استعيذ بالله من الشيطان، ولا تسرد ما رأيت حتى لا يتحقق..

نظر لها نظرةً صارمةً، وكاد أن ينهرها على هذه المعتقدات، ولكنه تذكر والدته في الماضي وهي تقول له نفس الشيء؛ فصمت ونهض وذهب إلى حجرة ديانا..

كانت الساعة الثالثة فجرًا وحين فتح باب غرفتها لم يجدها نائمة كعادتها لتستيقظ مبكرًا، بل وجدها تجلس على فراشها والغرفة مظلمة، وعلى وجهها علامات الخوف الشديد... أشعل جلال إضاءة الغرفة، وجرى نحو ابنته، وهو يقول بذعر: ما بكِ حبيبتي، ماذا حدث؟ أتشعرين بشيء.

تكلمي بالله عليكِ.. هنا انهارت ديانا وأجهشت في البكاء، وهي تحتضن والدها وتغوص في حضنه، ثم قالت: كابوس يا أبي. ولكني لم أكن أشعر أنه كابوس إلا بعد أن استيقظت.... رأيتك وأنت تقوم بإلقائي من أعلى بئر، ثم عدت وتركتني في الظلام.......

لم ينطق جلال ببنت شفة، ألجمه ما سمعه من ديانا وما رآه هو

الآخر، هل هي صدفة بحتة؟ تلك التي تجعل الاثنين في نفس الليلة والساعة يحلمان بهذه الكوابيس.... ربت جلال على كتف ابنته وقال لها: انهضي صلِّ ركعتين ونامي يا صغيرتي؛ فلديك عمل غدًا أيتها الحسناء...

كان يريد أن يخفف من وطء صدمتها.. وداعبها وقال: هل تريدينني أن أنام جانبك وأسرد لكي قصة الشاطر حسن كالماضي.... ابتسمت ديانا ابتسامة صغيرة، ثم تراجعت للوراء وجلست في مواجهة جلال، وقالت: أنا بخير الآن يا أبي اطمئن...

أدار جلال ظهره لها وعاد وجهه عابثًا مرة أخرى؛ فقد كان يهوِّن عليها فقط، أما هو فلن يستطيع النوم في هذه الليلة، سيفكر كثيرًا فيما رآه هو وابنته، وهل هناك شيء مشترك في الحلمين أم هي الصدفة..

استيقظت ديانا مبكرًا؛ وتأنقت كعادتها وذهبت إلى عملها في موعدها في تمام السابعة... وكانت تجول بنظرها خلسة بحثًا عن حسام، وهي في طريقها إلى مكتبها.

أصابتها الدهشة حين لم تجده؛ فهو ينتظرها كل يوم أمام مكتبها، يتحجج بفعل أي شيء حتى يراها وهي آتية، لكنها اليوم غير موجود، ولكن الأمر لم يتجاوز معها أكثر من دقيقة، أبدت بها دهشتها ومضت، ذهبت لغرفتها وجلست على مكتبها تباشر عملها...

في هذا الوقت كان حسام يجلس على مكتبه، يباشر عمله وعقله يعمل في أمر آخر، هو ما قاله أمجد له في محادثتهما بالأمس...

ولكنه تذكر أنه لم ينتظر ديانا اليوم؛ فترك عمله وذهب إلى مكتبها... وعندما وصل إلى باب مكتبها المفتوح ونظر إليها ـ ولأول مره يجدها تنظر إليه مبتسمة ـ ازدادت سرعة ضربات قلبه، وشعر بجسده كله ينتفض، وكأن روحه تسحب منه..

لم يخرجه من تلك الحالة إلا يد أمجد، التي ربت على كتفه وهو يقول: لا تنس بعد العمل سنذهب إلى مكان هادئ؛ لنتحدث بخصوص العمل الجديد... كاد أن يضرب أمجد لإخراجه من تلك الحالة العجيبة والجميلة، ولكنه تمالك نفسه وقال باقتضاب: حسنًا.

تركه أمجد، وعندما عاد حسام ببصره إلى ديانا لم يجدها على مقعدها؛ فقد كانت أمامه مباشرةً تقف وتنظر إليه...

أين الكلمات الآن؟ أين... ماذا أقول؟ وكأنه تمثال لا ينطق، كانت تلك الثواني تمثل هذا دهرًا.... حتى تحرّر لسانه وقال: ديانا كيف حالك؟

- ابتسمت وقالت بخجل: الحمد لله... اسمك حسام، أليس كذلك؟!

- بارتباك رد: بلى، حسام محمد... عُينت في نفس اليوم الذي تم تعيينك فيه، لقد حضرنا المقابلة سويًا أتتذكرين؟

- نعم أتذكر، فقد كان يومًا مليئًا بالتوتر، لكن الحمد لله نجحنا.

استعاد حسام ثقته التي كادت أن تضيع من فرط المفاجأة، وقرر حسم أمره، وقال: هل تمانعين أن أقوم بدعوتك على الغداء بعد العمل؟

أصعب خمس ثوانٍ مرت في حياة حسام ـ تلك الثواني التي انتظر فيها رد ديانا على دعوته ..

- قالت ديانا وقد فاجأها طلب حسام:

حسنًا، ولكن لا أريد أن أتأخر، عليَّ الذهاب إلى المنزل؛ فأبى يعلم مواعيد عملي، وإذا تأخرت بعض الوقت سيقلق كثيرًا.

***

أنهى شاكر حفلته الأسبوعية الصاخبة، وصعد إلى الدور الثاني في فيلته، وطرق باب حجرة نبيلة... فتحت له الباب وفي يدها قلمها وكتاب الجامعة...

- قال لها: لا أعلم ـ إلى الآن ـ إصرارك على عدم حضور أي حفل هنا، لماذا لا تتزينين وتحضرين معنا حفل واحدة حتى؟!

- عادت نبيلة تجلس على مكتبها ووضعت الكتاب أمامها، وقالت بهدوء: أنت تعلم يا أبي لا تروقني أجواء تلك الحفلات ولا أحبها، ولا أحب أيضًا من يحضرها.. أنا أعشق الهدوء ولا أحب الحياة الاجتماعية أبدًا..... ثم إنني هذه الأيام أشعر بوهن شديد... لا أعلم سببه، رغم أني لا أسافر كثيرًا إلى القاهرة؛ فأنا منذ وقت طويلٍ أقوم بمراجعتي النهائية قبل الامتحان ومع ذلك أشعر بهذا الوهن.

انتفض شاكر مما سمعه فهو يخاف على نبيلة لدرجة الجنون؛ فهي ابنته الوحيدة...

- قال بلهفة وعلامات القلق ترتسم على وجهه: ما بكِ، وبما

تشعرين؟ وما الذي يؤلمك، ومن أي شيء تشكين حبيبتي؟!

- ابتسمت نبيلة وسعادتها بالغة بخوف والدها عليها، وقالت: لا شيء مقلق يا أبي إنه بعض الإرهاق، أظن أن تلك الحالة ستزول بعد نهاية العام الدراسي وسأكون بخير.

- هدأ شاكر قليلا ثم قال: أتمنى ذلك، فأنا أنتظر أن تنتهي من عامك الأخير هذا بفارغ الصبر، فهناك حدث سعيد سيتم بعدها.

- أثار قول شاكر اهتمام نبيلة؛ فسألته بلهفة: ما هو الخبر يا أبي؟

- قال لها وهو يغادر الغرفة: لا تشغلي بالك، فقط عليكِ الاهتمام بصحتك ودراستك، وبعدها سأخبرك.

وأغلق الغرفة وراءه، وقبل أن يذهب إلى غرفته؛ وجد أمامه خادم المنزل يخبره بأن الشيخ عتمان ينتظره بالدور الأول من الفيلا.

هبط شاكر سريعًا، كان عتمان ينتظره واقفًا أمام سلم الفيلا الداخلي، وعلى وجهه علامات الفرح والتوتر والرعب جميعها في آن واحد، وقبل أن يصل إليه شاكر قال صائحًا: وجدناه يا باشا وجدناه.

***

لا أستطيع، سامحيني سيدتي هذا لا أستطيع فعله، قالها يعقوب لزوجه إدريس بكل هدوء.. ثم أكمل: فهناك أشياء لا أستطيع فعلها أو علاجها... ثم ما تطلبينه لا دخل لي به، أو بما لديّ لتنفيذه... أرض بما قسمه الله لك؛ فهو أيضًا رزق.

فوجئت السيدة بهذا الرد غير المتوقع على الإطلاق، فظلت صامته دقيقةً أو أكثر، لا تعرف ماذا تقول. ثم قالت دون أن تفكر: سأعطيك كل ما معي من أموال.

- ابتسم وقال بهدوء: وحتى إن لم تعطيني أي شيء وكنت أستطيع لكنت فعلت،

إن ما أفعله ليس بدافع المال.. توجهي بدعائك إلى الله لعله يستجيب.

- نهضت وهي تنظر له نظرة نارية كادت أن تحرقه، ولو كانت تمتلك القتل لقتلته.

انصرفت وهي تتمتم بكلمات لم يسمعها يعقوب، الذي لم يحرك ساكنًا أو ينظر إليها.

في الوقت الذي كان فيه عم طوخي يتخطى باب يعقوب المفتوح، ويلقي عليه السلام، ويجلس ويقول وهو يبتلع ريقه بصعوبة بالغة:

- ليس أمامي سواك، ولا أعلم كيف ستحل هذا المأزق؛ لكني أتوسل إليك أنقذني.

لم تتغير نظرة يعقوب لطوخي الذي أكمل: بدأ الأمر من قبل، فقط أريد أن أذكرك أن كل ما أملكه قيراطين فقط، احتفظت بهما بعد أن اشترى شاكر باشا أرضي بالإكراه - كما يفعل مع الكل - رغم أنه لم يقم بزراعتها، فأنا أرى من السور الذي بناه حول الأرض، كنت أسمع أعمال حفر في الأرض، وكنت أتلصص وأنظر من أعلى

السور على ما يفعلوه، فقد كانوا يقومون بحفر لا أعلم لما، ولم أهتم بالأمر..

الغريب أنني منذ شهر بدأت أشعر أن الأرض تحت أرضي الخاصة تهتز، أشعر بهذا وأنا أقوم بزراعتها أشعر به جيدًا. لم أحاول أن أسأل أحدًا؛ خفت من بطش شاكر ومساندة عمدة قريتنا له، وما جعلني أخاف أكثر هو وجود الشيخ عتمان في موقع الحفر، فكما تعلم كل أبناء قريتنا يخشون عتمان لقدرته على تسخير الجان وأعماله السفلية المشهور بها، لم أستطع ربط وجود عتمان في أرضي التي امتلكها شاكر... إلا بالأمس فقط.

عندما حضر لي أحد العمال الذين يعملون لصالح شاكر باشا، وهو يتلفت حوله خشيةً أن يراه أحد، قال لي: إن الحفر الذي بجانب أرضك تخطى أرض شاكر ووصل إلى أرضك من الأسفل، ثم قال وهو يرتجف: يبحثون عن مقبرة أثرية؛ وقد وجدوها...تحت أرضك... وهم يتكتمون الأمر تمامًا...

لا أدري حينها هل أفرح أم أحزن، أفرح إن تحت أرضي كنز أثري سيجعلني من الأثرياء. أم أحزن وأبكي؛ لأن شاكر استحوذ عليه.. لكن ما يجعلني صابرًا إلى الآن هو ما قاله لي العامل: بأنهم إلى الآن لم يفتحوا باب المقبرة، يحاول عتمان بكل الطرق فتح الباب، لكنه لم يفلح حتى الآن..

وقد جئت لك حتى أقص هذا عليك، لا أعلم هل ستستطيع مساعدتي أم لا، ولكنها عادتي فقد تعود الحضور إليك عندما يواجهني أمر ما....

كان يعقوب ينصت باهتمام شديد... فهو يعرف طوخي جيدًا، بل يعرف كم هو شخص طيب حسن الخلق.... له سمعة طيبة بين أهل القرية، ورغم أنه لا يملك دخلًا كبيرًا إلا أنه يفعل الكثير من الخير.

قال يعقوب بهدوء: دع الأمر الآن، ولا تفكر به، ولا تتحدث مع أحد عنه تمامًا حتى ولو كان زوجتك وأولادك. فهل تحدثت مع أحد قبل أن تأتي؟

رد طوخي سريعًا...لا لا لا... أنت أول شخص يا يعقوب.

تنفس يعقوب بعمق وهدوء.. ثم أردف: إذن لا تتكلم في الأمر حتى وإن جاء إليك العامل الذي أبلغك بالأمر؛ قل له: لا أهتم بذلك، ولا أريد أن أعرف شيئًا...

لم تطرف عين طوخي ولو مرة وهو ينصت ليعقوب، ولم يفهم كذلك السر من طلب يعقوب هذا، كان يعتقد أن يعقوب يخشى على نفسه من بطش شاكر، لو أنه علم أن يعقوب يعرف بهذا الأمر، لكن نظرة يعقوب لطوخي أثناء حديثه كانت تدل على الجدية والقوة، والرغبة في المساعدة مما طمأن طوخي.

لا أحد يعلم سر مصداقية يعقوب لدى الناس، فهو قادر على إقناع أي شخص بأي شيء، كما أن له هيبة محببة للأشخاص. لا تستطيع إلا تصديق ما يقوله حتى وإن كنت غير مقتنع بالأمر.....

عاد طوخي ينصت ليعقوب، حين أكمل وقال: الليلة التي ستراني فيها في منامك

تأتيني هنا بعدها مباشرة..

ثم أمسك يعقوب بمسبحته التي كان قد وضعها أمامه على المنضدة.. ونهض ودخل غرفته وترك طوخي، الذي كان جالسًا في حالة دهشة وأمل معًا.

***

أجننت يا حسام؟.. ماذا تقول؟!. أليس هناك اتفاقا بينا اليوم بعد العمل لنتحدث بخصوص عملنا الجديد... هناك الكثير الذي لا تعرفه عن الأمر.

كان رد فعل أمجد عنيف للغاية؛ فربما فقدا هذا العمل، ألم يكن هو من حلم بهذه الفرصة؟!

ولكن حسام تقبله بهدوء شديد؛ فلن يشعر أمجد ولن يتفهم كم يعشقها؛ لذا رد بابتسامة: لم أستطع الانتظار أكثر من ذلك، وكانت هذه فرصتي التي لم أجرؤ على اقتناصها يومًا وانتظرها منذ شهورٍ، وقد أتت اليوم، فكيف لا اقتنصها!!.

- إن كان الأمر هكذا فلا عليك؛ فلنجلس غدًا لتخبرني بالأمر، واتركني اليوم فلست في حاجة لأن أتوتر أكثر من ذلك، أشعر كأنني طالب ذاهب للامتحان ولم يقرأ كلمة..

عاد أمجد سريعًا إلى طبيعته المرحة، فهو كالطفل ينفعل سريعًا، ثم ينسى ويهدأ، فضحك وقال: هل تريدني معك لأساعدك أيها الخجول، وأكمل ضحكته ثم أردف: الحمد لله إنني لم أجد من تجعلني أهيم بها عشقًا مثلما فعلت بك ديانا... اهدأ أيها الأسير

العاشـق.... إن هـذه الخطـوة كبـيرة، أتمنـى لـك أن تكملـها كما ينبغي.... فلنلتقِ غدًا... وسأتصل بك ليلًا؛ لتخبرني ماذا فعلت في لقائك بها أيها الأسير العاشق.

- أيـن سنذهب قالتها ديانا، وهي تقف بجوار حسام، الذي ظل مرتبكا منذ الصباح.

- قـال: لا أعلـم.. هـل تفضـلين مكـانًا ما تعرفينه، أم نظل نمشي سويًا.

- ابتسمت وقالت نجلس أفضل حتى لا يرانا أحد من العاملين معنا في الوزارة.

- قال بتفهم: نعم هذا أفضل.. استوقف حسام سيارة أجرة، وذهب إلـى مكان هـادئ يطل على النيـل... باغتتـه ديـانا بسؤال بعد أن جلست: لماذا أنا؟

لـم يكـن حسـام فـي حاجـة للارتبـاك أكثـر مما يبدو عليـه، وكـان السؤال مُباغت ومفاجئ للغاية... مما جعله يصمت لمدة خمس دقائق قبل أن يفتح فاه، ويقول: لا أعلم... فمنذ أن رأيتك في المقابلة وأنا لا أرى أي فتاة أخرى، رغم أني لا أميل كثيرًا إلى الارتباط أو الكلام معهن. إلا إنكِ استطعت أن تخترقي قلبي دون اســتئذان، لا لــيس قلبــي فحســب بـل عقلـي وروحـي وكـل تفاصيلي.... وكأن السؤال أزاح عن كاهل حسام صعوبة البدء فاستفاض وأكمل: ومـن حينـها أحلم بـكِ وأحلم بمنزلنا كثيرًا، وحين كان يخطر ببالي أن ما أحلم به سيظل حلمًا فقط؛ كنت أشعر برعب من مجرد الفكرة.... كل تلك الأشياء كانت داخلي، ولا

أبالغ إن قلت إنني لا زلت في الوزارة بسببك؛ حتى أراكِ وأكون بجانبك....

هل تتخيلين أن كل هذا لك، ولم أحادثك ولو مرة واحدة... الغريب والعجيب أني بالأمس - وأمس فقط - كنت أفكر في أن أتكلم معكِ، وأصارحك بما أشعر به. كنت محتارًا بشدة هل أعترف لكِ بحبي أم أظل كما أنا، ولكني خشيت أن أعترف؛ فأخسرك إلى الأبد.

وخشيت ألا أعترف فيخطفك ويخطف قلبك غيري.... ظلت الحيرة هكذا تعبث بيِّ حتى رأيتك اليوم وأنتِ تبتسمين أمامي.... لا أدري إن لم تفعلي هذا اليوم فأي من الخيارات كنت سأختار.

كانت عين ديانا هي ما تجيب على حسام تستمع بأذنها، بل بكل حواسها، وتبرق عيناها حبًا.... وتبتسم شفاهها.

قطع النادل حديث حسام ليسألهما ماذا سيشربان ..... أكمل بعدها حسام:

- أتدرين أن اليوم كان لدي موعد مع صديقي أمجد؛ لنتحدث بشأن أمر ما أحلم..... لكن ليس هناك أهم منكِ، بل لا شيء - في هذا الكون - أحلم به أكثر من وجودك معي.

ثم ضحك وقال: تبًا ماذا حدث لي، كيف تجرأت هكذا لأقول كل هذا.. وصمت

كما صمتت ديانا، التي ظلت ابتسامتها كما هي، وقالت: كنت أعلم

كل ما تقوله إنها حاسة الأنثى... نعم أنا أيضًا (.....) ولم تكمل الكلمة، ضحكت فقط، ونظرت إلى الأرض خجلًا....

ثم أكملت: كنت أتابعك دون أن تشعر أو تدري، فنحن الفتيات نعرف كيف نفعل هذا، وعندما كنت تنظر لي، أو أجدك؛ أتظاهر باللامبالاة، وكأني لا أعرفك. ولكن دعنا من الماضي ومما سبق. رغم أنه كان رائعًا وجميلا رغم أني انتظرت أن تقتحمني كثيرًا. فكل يوم أقول لنفسي سيأتي ويتحدث ويعترف، وضحكت بقوة وأكملت: لكنك كنت تخذلني. ارتشفت رشفةً من قهوتها. وقالت لحسام الذي يبدو أنه لا يصدق إنها تحبه. فعاد لارتباكه مرة أخرى:

- أتدري أننا لا نعرف عن بعضنا أي شيء سوى الأسماء فقط؟

- قال بارتياح - كغريق كان يصارع موجًا عاليًا، ثم رسي إلى الشاطئ بعد أن اطمأن أنها تحبه -: سنعرف.

***

جلس عتمان بعد أن سمح له شاكر بالجلوس، إنه أمر جلل ذاك الذي جعل شاكرًا يسمح لأحد أن يجلس أمامه، ثم قال بحماس شديد: وجدنا البوابة الخاصة بالمقبرة، وعليها النقوش واسم الكاهن، وهذا يثبت أن المومياء التي بداخل المقبرة لملك كبير من الأسرة السادسة... ألم أقل لك يا باشا أن في هذا المكان يوجد كنز كبير....

كان شاكر ينصت باهتمام شديد، حتى أن الغليون الخاص به قد انطفأ منه دون أن يشعر، وهو لا يزال يأخذ منه الأنفاس.. ثم

قاطع حديث عتمان قائلًا: أريد أن أراه بنفسي...... قال عتمان: بعد أن باغته شاكر بهذا الطلب، وعاد إلى آخر المقعد، وبصوت به الكثير من الخوف والتردد: لكن هناك مشكلة صغيرة.

- رد شاكر سريعًا: ماهي؟. أجاب عتمان: بعد أن حفرنا؛ وجدنا باب المقبرة أسفل أرض طوخي!!!!!!!!

- انفعل شاكر بشدة، وقال غاضبًا: لا يهم، سآخذ تلك الأرض المتبقية لديه... من يجرؤ أن يرفض لي طلبًا. مَنْ طوخي هذا حتى يعترض، لكن مهلًا هل علم أحد بالمقبرة؟

- رد عتمان بسرعة: لا يا باشا حتى العمدة لا يعلم بالأمر.. فقد مر منذ عشرة أيام علينا ونحن نحفر؛ وتعجب من وجودي مع العاملين، كان يبدو عليه الشك بسبب وجودي في أرض يتم الحفر بها؛ لذا سألني عما نفعل، قلت له: إنك من طلبت مني أن أتابع العمال الذين يحفرون لتركيب ماسورة مياه لري الأرض؛ نظرًا لعدم وجود أحد معهم.

أعلم أنها حجة ليست مقنعة أو متقنة للغاية؛ لكن لم يكن أمامي أي حجج أخرى خاصة وقد باغتني بسؤاله... ثم أني أعلم أنه لن يجرؤ على سؤالك.

أشعل شاكر غليونه بعد أن اكتشف انطفاء التبغ منه، وقال: أريد الذهاب لرؤية المقبرة... أماء عتمان برأسه بالموافقة.. ثم أردف: أتريد الذهاب قبل فتح باب المقبرة أم بعده....

- رد شاكر بحدة قائلًا: قبل وأثناء الفتح أريد الذهاب إليها، ثم قال لنفسه دون أن يسمعه عتمان: أيظن هؤلاء الأوغاد أني

سأتركهم يفتحون هذا الكنز دون وجودي؛ حتى يأخذوا ما يريدون دون أن أعلم. تبًا، يا لهم من حمقى أغبياء.

أخرجه من هذا الحديث عتمان بسؤاله عن الموعد، الذي يريد أن يذهب فيه إلى موقع الحفر.. قال له: غدًا بعد الظهر...

عتمان: أمرك يا شاكر باشا، انصرف عتمان وهو يحدث نفسه ممني إياها بمكافأة مجزية من شاكر؛ لعثوره على تلك المقبرة... فلم يكن ليصدق نفسه أنه أخيرًا عثر على شيء ثمين.

فطوال عمره وهو يحيا على الشائعاتٍ في إنه يستطيع عمل الأعمال، وتسخير الجان، إضافة إلى هذا، عندما قابل شاكر وأقنعه أنه يستطيع أن يعرف أماكن المقابر الأثرية في القرية...

صدّقه شاكر وطلب منه البحث عن مكان لمقبرة، وسوف يقوم بشراء الأرض فورًا وقد كان، فقد طلب عتمان من شاكر شراء هذا الجزء من أرض طوخي، ولما طلب طوخي إبقاء قيراطين تركهما الباشا؛ لأنه لم يكن يريد الأرض بل المقبرة، لكن هذا الحظ اللعين أجاد لعبته معي بجدارة.

محظوظ أنا أم منحوس؟!... لم أكن أعلم أن أرض طوخي بها أي مقابر، فأنا دجال فقط، كنت أريد فقط كسب ثقة الباشا، وبعض الأموال وأثناء الحفر كنت أريد التقرب منه أكثر، كان مخططي أن أظل أجعله يشعر أننا نقترب ونقترب أطول وقت، ثم أبحث عن أرض أخرى وأقول له هناك شيء أكبر من هنا وهكذا وهكذا.

لكن الكارثة إني أصبت... كيف علمت لا أعرف.. النحس هنا ظهر فمن عشرين قيراط أشرت إلى ثمانية عشر قيراط لم تكن المقبرة

تحتهم، بل كانت في القيراطين المتبقين، لا يهم

المهم الآن أن أذهب لأطمئن على باب المقبرة.. مرة أخرى....

صعد شاكر إلى غرفته أشعل مصباح خافت، كي يغير ثيابه لينام، كانت إلهام زوجته تغط في نوم عميق بعد انتهاء الحفل، فلم تشعر به وهو يسحب جزءًا من الفراش... وضع رأسه على الوسادة وترك لخياله العنان؛ كي ينطلق عما سيجده غدًا داخل المقبرة....

نعم هو ثري للغاية لكن من يكره أن يزداد الثراء.. ثم فجأة تذكر نبيلة نسي تمامًا حديثه معها، وتذكر فقط وجهها الشاحب، كاد النوم أن يطير من عينيه من شده قلقه عليها.. لكنه حاول أن يطمئن نفسه بأنه غدًا سيحضر لها طبيبًا كي يطمئن قلبه..

نهض شاكر في السابعة صباحًا فهذا هو موعد استيقاظه اليومي، جلس في حديقة فيلته يتناول إفطاره ويتصفح جرائد الأمس؛ فلم يكن وقتها في القرى يمكن أن يصل إصدار اليوم في موعده... وكانت زوجته إلهام تجلس أمامه بعد أن قامت بعمل تمارينها الصباحية.

قال لها: ألم تطمئني على نبيلة اليوم؟

قالت: لا لم أذهب إلى حجرتها.

رد غاضبًا: أريدك أن تعتني بها أكثر من ذلك.... وتركها وصعد سريعًا إلى غرفة نبيلة.... طرق بابها برفق فلم تستجب... فتح باب الغرفة فوجدها ملقاة على الأرض فاقدة للوعي.... جرى

نحوها بهلع يصرخ: ابنتي ابنتي....

حملها وركض بها هابطًا الدرج سريعًا.... وصاح: جهزوا السيارة سريعًا.. ركبها وانطلق السائق باتجاه المشفى خارج القرية.

***

الحمد لله... قالها طوخي بعد أن فرغ من تناول عشاءه، وقامت زوجته بحمل الطعام من أمامه، نهض ليتوضأ ليصلي العشاء... وبعد أن أنهى صلاته ذهب إلى فراشه ونام..... ورأى الشيخ يعقوب وهو جالس يعطي دروس وأمامه الكثير من البشر، كأنه خطيب في جامع وهم ينصتون له بشدة.... ولم يوقظ طوخي إلا صوت أذان الفجر..... تذكر حينها قول يعقوب له.... لا تأتي هنا إلا عندما تراني في المنام..... انقبض قلبه رعبًا، لم يدر لماذا... فتوضأ ثم صلي الفجر وجلس يفكر كيف سيساعده يعقوب، وهل يستطع ذلك أم لا؟

كان يرتجف من فكرة أن يساعده؛ فكيف له ذلك وشاكر لن يتركه، كما أنه لم يكن يتخيل يوما أن يكون معه ألف جنيه حتى بعد أن اشترى شاكر منه أرضه؛ فقد اشتراها بثمن زهيد للغاية ولم يجرؤ على الاعتراض؛ فلا أحد يستطيع معارضة شاكر أبدًا.....

قطعتْ ابنته فاتن تفكيره، تلك الصغيرة ذات الخمس سنوات ـ التي دخلت إليه في حجرته بعد أن استيقظت وقبلته كعادتها اليومية ونامت بين ذراعه ـ لم يتركها بل احتضنها، وغلبه النعاس مرة أخرى قبل أن يذهب إلى الشيخ يعقوب.....

وحين دخل عليه وجده أمامه يجلس كعادته ولكنه يبتسم هذه

المرة..

قال له أنصت لما سأقوله جيدا: في منتصف الليل أغلق باب دارك جيدًا، وقم بحفر حفرة كبيرة في منتصف الدار، ومن الأفضل أن يكون الدار مظلمًا، ستجد بعد متر من الحفر المقبرة. لك فيها فقط صندوق به ذهب هو لك..... لم يصدق طوخي ما يسمعه من يعقوب..

فغر فاه ولم ينطق لمده دقيقة.... ثم قال له: وشاكر باشا هل سيتركني؟

قال يعقوب بهدوء شديد لا شأن لك أنت بهذا.... لكن لا تنس يجب أن تكون في الدار بمفردك، أرسل زوجتك وابنتك هذه الليلة إلى أي دار آخر.. وبعد إخراج الكنز اترك التابوت مكانه ولا تفتح الحفرة مرة أخرى، لك الصندوق الذي به الذهب فقط... تذكر هذا جيدًا.

اذهب الآن وعد غدًا صباحًا؛ لتخبرني ماذا فعلت، نهض طوخي مسرعًا دون أن ينطق حرفًا، كان مندهشًا ومصدومًا؛ فمن يصدق أنه على أعتاب الحصول على كنز، وسيكون ثريًا مثل الباشا وأمثاله.. عقله يأبى أن يستوعب هذا.. ذهب سريعًا إلى داره، وألقى نظرة خاطفة على موقع الحفر في أرض شاكر... أرضه سابقا.

وجد ثلاثة رجال يحرسونها ويحيطون موقع الحفر بسور عالٍ أنشأوه في بداية الحفر.... تسأل عن رد فعلهم لا يدرك شيئًا هو سينفذ ما طلبه يعقوب فقط دون نقاش، إنه يثق به كان يرتعد

من فكرة علم شاكر بما سيفعله.. رغم أنه المعتدَى على أرضه، لكن هذا الزمن لا يعطي مالك الحق حقه. يأخذه من يملك سلطة ونفوذ.. قابلته زوجته قائلة: أين كنت لم أجدك في الأرض؟ قال بوهن مصطنع: أشعر بتعب شديد اليوم؛ لذا لن أعمل في الأرض، ثم قال ما رأيك في الذهاب لأمي اليوم اذهبي إليها فأنا أعلم أنها تشتاق لفاتن كثيرًا وابقِ معها يومين وسأمر عليكِ غدا كي أطمأن عليها.

وافقت دون سؤال حتى فهي زوجة بسيطة ريفية، لا تعترض على أي أمر حتى وإن قال لها زوجها ألق بنفسك في هذه الترعة ستفعل، نهضت وأخذت ابنتها فاتن وذهبت إلى والدة طوخي المُسنة ذات التسعين عامًا تتذكر طوخي بالكاد، سمْعها ضعيف للغاية، كذلك نظرها، فهي لن تسأل زوجته لماذا أتت أو تسأل عن أي شيء.

اختيار موفق منه بالتأكيد... وجلس ينتظر أن تغرب الشمس، وقلبه يرتجف رعبًا.. ليس خوفًا فقط، بل ترقبًا لما سيجد.

إنها بخير يا شاكر باشا... لا تقلق عليها إنه إرهاق فقط لا شيء آخر، لا يوجد بها أي شيء

- رد شاكر بقلق شديد كيف يا دكتور كيف فقد فقدت وعيها تمامًا، وبالأمس شكت من وهن وتعب شديد.. اجرِ لها فحوص أخرى حتى اطمئن.

- ضحك الدكتور وقال أقسم لك إنها بخير، وقد أجريت كل الفحوص اللازمة ووضعتها تحت ملاحظتي الشخصية ساعتين؛

ولم أجد شيئًا يسبب الإغماء إلا الإرهاق، لا تقلق تستطيع أخذها الآن والعودة للقرية فالطريق من هنا طويلة.

- سأكتب لها على بعض المقويات قم بشرائها في طريق عودتك للقرية....

تركه شاكر ودخل سريعًا إلى نبيلة، التي كانت ترقد على الفراش، وقد قالت وهي تبتسم: أرأيت إنه إرهاق فقط لا تقلق... احتضنها قائلًا: لا ترهقِ نفسك في مذاكرتك مرة أخرى، فلا أريد تلك الدراسة إن كانت السبب في مرضك وتعبك.

هيا لنعود إلى القرية أتدرين يا جميلتي: كان لدي موعد مهم اليوم لكن تعبك هذا أنساني إياه-- ثم ضحك وقال لا يهم سأذهب لهذا الموعد ليلًا... هيا بنا.

عاد شاكر إلى فيلته، كانت إلهام تنتظرهما وهي تكاد تموت قلقًا على ابنتها طمأنها شاكر، ثم استدعى خادمًا لديه، وقال له: اذهب واحضر عتمان إليَّ حالًا.

قال خادمه: سيدي لقد أتي عتمان بعد الظهر اليوم إلى الفيلا، قال شاكر بعصبية شديدة: أعلم. لا تثرثر كثيرًا فقط نفذ ما آمرك به دون أن تفتح فمك، نظر الخادم إلى الأرض وانصرف ليحضر عتمان، كانت الساعة تقترب من السابعة مساءً، وكان طوخي في هذا الوقت يجهز لما أمره يعقوب بفعله.

أعد عدته من أدوات للحفر... أغلق مصباح الإضاءة.. أحكم غلق باب الدار وبدأ الحفر في منتصف الدار بالظبط مثلما قال يعقوب تمامًا، كان يشعر أن هناك من يساعده، فليس من الطبيعي إنه بعد

مرور ساعة أن يصل إلى العمق المطلوب بمفرده... ثم فجأة شعر أنه قارب على الوصول للغرفة الفرعونية، صعد على حافة الحفرة كي لا يسقط، وأمسك بحديدة طويلة قوية وظل يضرب على الأرض داخل الحفرة حتى وصل إلى الباب الخشبي ذي المقبضين الذي يفصل الغرفة عن سطح الأرض. وهنا ظهرت أمامه الغرفة واشتعلت المصابيح داخلها فجأة كأنها أُعدت لتشتعل المصابيح عند دخول أي هواء لها، وجد طوخي كل ما لم يتخيله من كنوز ثمينة.

كان موجودًا داخل الغرفة مومياء ترقد داخل تابوت مفتوح، برادي، وكذلك أحجار غريبة تبدو ثمينة.. وهناك في هذا الركن كان هذا الصندوق المفتوح، وبداخله الكثير من الحلي الذهبية الفرعونية.. كاد طوخي أن يُجن؛ هبط سريعًا وأخذ يمشي داخل الغرفة بحذر شديد. حتى وصل إلى الصندوق فأغلقه، وعاد ليصعد إلى الدار، وآثار إعجابه إبريقًا ذهبيًا لامعًا أمسكه بيده، ولكنه تذكر قول يعقوب له ـ لا تأخذ إلا الذهب فقط - ظل ممسكًا به لمدة دقيقة ثم تركه على مضض.

هل كان يحلم يوما بما يحمله في يده؟!.. انتفض جسده وكاد قلبه أن يتوقف عندما سمع صوت شاكر في الجهة المقابلة عند الباب الجانبي وهو يصرخ، لكن لم يتبين ماذا كان يقول، وقد كان هذا كفيلًا بجعله يسرع ويصعد إلى الدار، كاد وهو يهرع للصعود أن يُسقط الصندوق؛ لكنه أمسكه بإحكام. صعد وأغلق الباب ذا المقبضين بإحكام، وظل يلهث من فرط الإجهاد والتوتر والقلق.......

***

قبل ساعة:

دخل الخادم مسرعًا إلى شاكر باشا ومعه عتمان، أدخله للباشا الذي كان يجلس على مكتبه يشعل غليونه، الذي التفت وقال لعتمان وهو ينفس الدخان ببطء: سنذهب الآن إلى المقبرة.

- رد عتمان بهدوء وثقة: أمرك يا سيدي هناك عاملان يحرسان الموقع أعلى الحفر، هل نأخذ رجالا آخرين أم تريد أن ترى البوابة فقط.

- قال شاكر وهو يستمتع بتدخين الغليون. لا لا أريد فقط أن أرى البوابة....

تحرك عتمان وشاكر تجاه الموقع مروًا بمنزل طوخي الذي كان مظلما، قال عتمان لشاكر يبدو أن طوخي ليس في داره اليوم، لو كان هنا كنا سنجده جالسا أمام الدار يشعل النيران ويحرس أرضه... لم يهتم شاكر لما قاله عتمان، كان نظره منصبًا على موقع الحفر الذي يفصله عن دار طوخي عشرون مترًا فقط..

ترجل عتمان من السيارة أولًا؛ هبط ليفتح الباب الآخر لشاكر الذي هبط منها كالطاووس المغرور... وصلا إلى الموقع وكان العمال يقفون ويحملون بنادقهم ذات الماسورتين الشهيرة آنذاك متأهبين لأي أمر.

كان هناك سلمًا خشبيًا مربوطًا بحبل على الجانبين، هبط عتمان أولا وهو يحمل المصباح، وهبط خلفه شاكر بصعوبة بالغة.

تقدم عتمان وهو يحمل المصباح ويمني نفسه بمديح من شاكر وثناء على ما فعله، ولا يمنع الأمر من مكافأة مالية لوصوله إلى المقبرة، ظل يمشى حتى وصل إلى باب المقبرة، ودون أن ينظر إليه رفع يده بالمصباح تجاه الباب ونظر إلى شاكر، وقال: ما رأيك سيدي..

- قال شاكر بتعجب رأيي في ماذا، أين البوابة؟

- ظل عتمان مثبتًا نظره لشاكر، وهو يقول أمامك سيدي.... قال بحدة شديدة: أتعبث معي أيها المخبول، وصرخ فيه. أين باب المقبرة؟ التفت عتمان إلى جهة البوابة، ونظر إليها.... هنا اختفت ابتسامة الثقة التي كانت تعلو وجهه؛ وجحظت عيناه بشدة، وهو يبحث عن البوابة التي اختفت، فلم يكن لها أي أثر، فقد كان هناك جدارًا صخريًا مثله مثل أي جدار أدار عتمان المصباح يمنة ويسرة يبحث عن البوابة. رغم ثقته أنها كانت في هذا المكان تحديدًا. وظل يردد هنا هنا ... لكنه لم يجد شيئًا.

ظل يبحث بيده كالمجنون يلتمس أثرها على الجدران: سأجدها سأجدها.. كان شاكر ينظر له نظرات نارية، ثم صرخ به: كفى كفى أيها الأحمق الدجال، كيف صدقتك أيها المعتوه.....؟!

- قال عتمان بصوت أقرب إلى البكاء: أقسم لك يا سيدي أنها كانت هنا، لن أجرؤ أن أقوم بالكذب عليك، ثم ركع على قدميه أمام شاكر، أرجوك سيدي صدقني....

- صاح شاكر وقد استشاط غضبًا بعد أن شعر أن عتمان خدعه:

- وقال ستنال جراء خداعك لي هذا عقابًا لن تنساه أبدًا، ثم أخذ

من يده المصباح؛ وتركه وصعد السلم الخشبي، وقد أسنده وأمسك بيده أحد العاملين؛ ليصعد خارجًا من الحفر، نظر شاكر خلفه لثوانٍ قليلة قبل أن يقول للعامل: اسحب هذا السلم.... نظر العامل في ذهول فهو يعلم أن عتمان لايزال أسفل الحفر....

- صاح شاكر بعصبية قلت لك أرفع هذا السلم الآن، رفع العامل السلم وهو لا يدري ما الأمر، كان وقتها عتمان قد وصل إلى مكان السلم، نظر إلى أعلى وقال لشاكر: أرجوك سامحني اعطنِ فرصة لأعلم ما حدث...

- نظر إليه شاكر ولم يقل شيئا، ثم نظر للعاملين وقال: لا أحد يدخل أو يخرج من هنا. قبل أن آتي مرة أخرى هل سمعتم. أشاروا برأسهم بالفهم. ركب سيارته وانطلق وهو يشتعل غضبًا، يا له من يوم سيء، بدأ بتعب نبيلة وانتهى بخداع عتمان له . كما يظن ..

كان طوخي في هذا الوقت يجلس في منتصف داره ممسكًا بالصندوق الذي يحتوي على الكنز الثمين، وشرد بخياله عما سيفعل به، وكان أول ما جال في خاطره هو أن يعطي يعقوب ما يطلبه، ثم يبدأ في شراء أرض كبيرة و... أخرجه من أحلامه صورة شاكر التي ظهرت فجأة في ذهنه فعاد إلى ما هو فيه، وتحدث إلى نفسه وقال: ستكون كارثة إن علم شاكر بالأمر؛ فسيقتلني أنا وابنتي وزوجتي.

سيظهر الثراء عليّ فجأة! فكيف أبرر هذا.. ثم تذكر جملة يعقوب «لا شأن لك بهذا».

***

لم تكن ليلة عادية لحسام أبدًا، بل كانت ليلة كليالي ألف ليلة وليلة، بعد أن قام بتوصيل ديانا إلى منزلها... وودعها، لم يذهب إلى منزله بعدها، بل ظل يمشي شارد الذهن، لا يفكر إلا بها، لا يزال لا يصدق أنها كانت تبادله الحب أيضا، شعر بالندم على تأخره في أن يعترف لها، لكنه قال لا يهم، المهم أنها تحبني ظل هائمًا هكذا في شوارع القاهرة، بل إنه ذهب إلى المنزل على قدميه، صعد إلى شقته ألقى بنفسه على فراشه وذهب في نوم عميق....

حتى في أحلامه أتت له؛ لكن هذه المرة كانت تركض وعلامات الذعر ترتسم على وجهها، لكن الغريب أنه كان يركض معها كأنهما يهربان من أمر ما.

استيقظ على صوت رنين هاتفه نظر إلى الهاتف فوجد الساعة الثانية عشر ظهرًا، تبًا لم يستيقظ كعادته في وقت العمل كان أمجد من يتصل. أين أنت يا حسام ماذا حدث؟ انتظرتك معتقدًا أنك ستأتي في نصف اليوم حتى مر الوقت ولم تحضر، هل أنت بخير!

- أجاب حسام نعم نعم أنا بخير. لم أسمع رنين المنبه فقط يبدو أنني كنت مرهقًا للغاية.... - ضحك أمجد وقال بخبث يبدو أنك لست وحدك المرهق فديانا أيضا لم تأت اليوم، ثم ألم أقل لك أمس اتصل بي لتخبرني ماذا فعلت معها...

- قال حسام بدهشة. ألم تذهب ديانا للعمل هي أيضًا؟

- قال أمجد نعم يا صديقي يبدو أنه اتفاق بينكما...

- سأتصل بها كي أطمئن عليها. هنا تذكر حسام أنه نسي أن يأخذ رقم هاتفها المحمول...ثم أكمل: أمجد المهم هناك خبر سيء...

- رد حسام سريعًا ما هو؟ ماذا حدث؟

- قال أمجد إن العمل الميداني الذي حدثتك عنه أول أمس قد ضاع منا؛ فقد أتوا بمهندسين آخرين وضاعت الفرصة علينا... لم يكترث حسام لما سمعه يمكن لو أتى هذا الخبر قبل لقاء ديانا أمس لحزن بشدة، لكنه لايزال تحت تأثير لقاء الأمس.

- فكان رده لا يهم كنت أشعر أن الأمر لن يتم....

- عاد أمجد إلى مزاحه، وقال: هيا احك لي يا روميو ماذا حدث أمس.

- ضحك حسام وقال غدًا عندما أراك سأحكي لك، دعني أعود للنوم إن استغلال الإجازة واجب، عليّ الآن الاستمتاع بها وغدا نتحدث.... على الجهة الأخرى.. كانت ديانا لا تزال نائمه فلم تتذوق طعم النوم الليلة الماضية فقد ظلت ساهرة تستمع إلى الأغاني الرومانسية، وتتذكر كل كلمة قالها حسام حتى أذّن الفجر وسقطت استسلاما للنوم...

وفي الصباح بعد أن مر موعد نزولها للعمل دخلت والدتها إلى غرفتها؛ فوجدتها نائمة فلم توقظها، تركتها حتى استيقظت بمفردها، ثم سألتها ما بكِ تبدين اليوم مختلفة عن الأيام السابقة.. ابتسمت ديانا وأومأت برأسها يمنةً ويسرةً كأنها تتعجب

مما تقوله والدتها، ثم تركتها وذهبت لتغتسل، وعادت بعد أن أعدت قدحًا من الشاي، وجلست بجوار والدتها التي كانت تراقبها دون أن تشعر، وكأي أم قريبة من ابنتها شعرت بشيء غامض؛ فلم تصارح ديانا مباشرة، بل بكل ذكاء سألتها كيف حال العمل.

ارتشفت ديانا رشفة من الشاي ونظرت إلى القدح وهي تلعب بالملعقة وقالت لا جديد، عمل روتيني بحت ممل، لكن لا أحب الجلوس في البيت كما تعلمين يا أمي... ربحت ديانا الجولة الأولى من لعبة سأوقعك لا محالة، التي تلعبها مع والدتها.. لم تيأس شيرين والدتها. باغتتها بسؤال خبيث بعض الشيء فقالت لها: أعلم أن هناك زملاء لكي في المكتب، لكنك لم تذكري مرة أيًّا من أسمائهم.

ردت ديانا سريعًا: انجي وتالا وإسراء ونانسي... كانت شيرين تنتظر أن تكمل ديانا باقي الأسماء كانت تبحث عن اسم ما أو بالمعنى الأدق اسم شاب، فقد كانت أمس تتابع سهرها وسماع الأغاني وظنت ديانا أنها نائمة.... فكانت نتيجة الجولة الثانية مثل الأولى... لكن وهل تيأس الأمهات؟ بالطبع لا... اقتربت من ديانا ووضعت يدها على كتفها وأمسكت شعرها برفق كأنها تمشطه بيدها، ثم قبلتها وهمت بالنهوض والذهاب إلى المطبخ لا تريد أن تسأل أو تضغط عليها، قالت وهي باتجاه المطبخ إن أردت أن تخبريني بشيء أنا في انتظارك.

حسام.. قالتها ديانا بصوت هادئ خافت للغاية سمعتها شيرين بعد أن أعطتها ظهرها.. ابتسمت دون أن تراها ديانا، لم تقف شيرين، بل أكملت مشيها باتجاه المطبخ وهي تبتسم، لم تحتاج

لأن تنتصر في جولات فهي تثق إنها ستفوز بالاستسلام... ركضت ديانا خلفها وهي تقول بعد كل المحاولات هذه وعندما أخبرك تتركيني.

التفتت شيرين لها وهي تضحك ابنتي وأعرفك جيدًا، وكنت أثق أنك ستخبرينني. هيا احكِ مَنْ حسام هذا؟ قالتها وهي تغمز بعينها لها... احمر وجه ديانا خجلًا، وظلت على مدار ساعة كاملة تحكي لشيرين عن حسام وبعد أن انتهت... قالت لها: متى سيأتي ليقابل والدك، بسخرية قالت ديانا: أمي إنه لا يعرف إلى الآن رقم هاتفي فكيف سيأتي، أراكِ تتعجلين الأمر هل تريدين أن تتخلصي مني سريعًا هكذا.. وضحكا، ثم قالت شيرين: أشفق عليه كثيرًا من لقاء جلال فأنتِ فتاته المدللة. كنت كثيرًا أمازحه وأقول له: أنت ستعذب من يتقدم للزواج من ديانا.

***

اختفى صوت الأقدام وعاد الهدوء والصمت المطبق داخل البئر، وشعرت ليليان ببعض من الطمأنينة، نهضت نحو الجدار الذي كان عليه الرسالة الغامضة، تبحث عن أي كلمة تساعدها على الفهم، وعندما وصلت أمام الجدار وقفت أمامه غير مصدقة، تعلو ملامحها الدهشة والرعب؛ فلم يكن هناك أي شيء عليه، أصبح كالجدران الأخرى خالٍ من أي كتابة...

هل كان عقلها يعبث معها؟ أم أن البئر هي ما تعبث معها، كل شيء هنا غريب كأنه عالم آخر موازٍ للأرض لكنه في باطنها.... ثم فجأة بدأ الصراخ صراخ لم تسمع مثله طوال حياتها. صراخ أشخاص استطاعت أن تميزه، كانت أصوات كثيرة كأنها تعذب

فـي أعمـاق الجحـيم، أصوات نساء ورجـال يتمتمـون ببعض الكلمات التي اختفت معالمها من شدة صراخهم، سيتوقف قلبها لا محاله.. يرتجف جسدها تترنح وتجلس على الأرض تزحف نحو ركن صغير داخل الغرفة.

تضع يدها على أذنيها تحاول غلقها؛ كي لا تسمع، تبكي من شده الرعب، يزداد الصراخ والضجيج أيضا، وبدأت البئر في الاهتزاز كأنه زلزال أصاب الأرض.

ظلت البئر تهتز، والصراخ يتعالى لمدة دقيقة حتى هدأ كل هذا فجـأة، وتحـول صـراخهم إلـى بكـاء، بـل نحـيب مقبض للنفس؛ تكورت حول نفسها، وضمت قدميها إلى صدرها، ووضعت رأسها بينهما؛ واجهشت بالبكاء.

ثم سمعت فحيح كفحيح الأفاعي، كان ينطق شيئا ما، تشعر أنها تفـهم مـا يقولـه هـذا الفحـيح، تحـاول أن تتبـين الكلمـة.... لا لا مستحيل قالتها بصوت خافت ظل الفحيح يردد. ليبلياااان نعم هو اسمي، ثم ظهر فجأة على الجدار رقم أربعة مكتوب بحجم كبير، نظرت على باقي الجدران وجدت أن كل جدار يحمل رقم. خلفها كان يحمل رقم واحد، وعن يمينها رقم اثنين، وعن يسارها رقـم ثلاثـة.... كـانت الجـدران تتمـايل ببطء كـأمواج الشاطئ الـهادئ.. تتبدل أشكال الأرقام أمامها بكل اللغات، فتارة باللغة العربيـة، وتـارة بالإنجليزيـة ومـرة بالـهيروغليفية، نظرت حولها تبحث عن مخرج: تبًا أين الباب؟ اختفى الباب الذي دخلت منه هربًا من العناكب، لن أخرج من هنا، قالها عقلها، دون أن يستطيع لسانها نطق الجملة.

رفعت نظرها إلى أعلى وهي تبكي ويا ليتها ما فعلت؛ فقد كان سقف الغرفة عبارة عن أعين تنظر لها، تتحرك مقلاتها باتجاهها، أعين بشرية أو تبدو هكذا، نهضت وتحركت يمينًا فتحركت الأعين يمينًا، وإن مشت يسارًا تتحرك مثلها، منصبة النظر عليها فقط، وفجأة اختفت الأعين وظهر بدلًا منها صورة منزلها أو تحديدًا ردهة منزلها....

تلك التي كانت تحمل صورة جدتها، لا بل أصبحت الردهة تحمل كل صور جدتها، كيف وهي تعلم أن هناك صورة واحدة لها كانت تضعها والدتها في الردهة، تحولت الردهة كلها الآن إلى صور كثيرة لتلك الجدة. وصور لها وهي صغيرة تمسك بيد والدها الذي لا تستبين ملامحه تمامًا، إنه يظهر في الكثير من الصور لكن ملامحه سوداء قاتمة لا تتبينها.. تدور الصور في سقف الغرفة كالكواكب في السماء، وتقف في محور الغرفة... تشعر بالدوار، لا تعرف ما يحدث، حتى لمحت يد تخرج من الجدار الذي يحمل رقم ثلاثة.... جحظت عيناها ولم يستغرق الأمر ثانية واحدة، سُحبت اليد مرة أخرى بسرعة البرق، وكأن هناك من سحبها من خلف الجدار..

وظهر فوق الأربع أرقام الموجودة على الجدران أربع ساعات، لكل ساعة رقم محدد، ثم بدأت الساعة التي تعلو رقم واحد في العد التنازلي ستون دقيقة، والساعة التي تعلو رقم اثنين مائة وعشرين دقيقة، والساعة فوق رقم ثلاثة مائة وثمانين دقيقة، أما الساعة الرابعة فمائتين وأربعين دقيقة.

***

قرية إتليدم في محافظة المنيا، قرية مثل باقي القرى الصغيرة، تطل على ترعة الإبراهيمية وخلفها نهر النيل وتحيطها جبال شاهقة، تُسمي بني حسن، يعيش أبناء القرية على ما يزرعونه فقط، لا يخرجون منها أبدًا، تشعر أن العالم في الخارج يركض في اتجاه معاكس لهم لا يعرفون عنه شيئا...

إلا أثرياء القرية المعدودين على أصابع اليد الواحدة هم فقط من يدركون الفرق.... أغلب أهل القرية من الفقراء.. لا يوجد من يمتلك قطعة أرض زراعية كبيرة أغلبهم إن لم يكن كلهم يمتلكون قطع صغيرة للغاية، كان يميزها طيبة أهلها الشديدة وحبهم لبعضهم البعض، ظلت هكذا حتى عام ١٨٠٠. حين انهار جزء من الجبل على القرية فأبادها تمامًا لم ينج الكثير من أهل القرية من تلك الكارثة.

وبعدها بدأ من نجا في إعادة إعمار القرية، التي لم يسمع أحدا أو يهتم لما حدث بها فقد كانت القرية منغلقة على نفسها.. لذا فطن الناجين للأمر واستطاعوا عمل طرق داخلية بين الأراضي الزراعية لتمررهم وتصلهم بالقُرى المجاورة وخرجوا إليها، بل تزوجوا منها الكثير وعادوا لقريتهم بمن تزوجوا وعاشوا بالقرية، وعاد مرة أخرى عددهم مثلما كان، ثم بدأت الشائعات تخرج من الناجين من الكارثة تقول إن سبب انهيار الجبل هو محاولة بعض من الأشخاص التنقيب داخله عن الآثار، التي تملأ الجبل وهو ما تسبب في غضب حراس هذه الآثار من الجان؛ لذا ثارت الكثير من الأساطير حول الجبل مما جعل الأجيال الجديدة تخشى الاقتراب منه تماما..

لكن كسر هذه القاعدة خمس فتيان أثارت الأقاويل فضولهم، وكانوا يتحلون بالشجاعة فهمّوا بالذهاب إلى هذا الجبل. وظلوا هناك ثلاثة أيام، ولم يعد منهم إلا واحد فقط، عاد في حال لا يرثي لها، غير قادر على النطق، وظل هكذا حتى تُوفي؛ لذا لم يعلم أحد بشأن هؤلاء الفتيان أبدًا.

***

لم يذق طوخي النوم في هذه الليلة الطويلة، كان جالسًا بعدما أعاد كل شيء لموضعه يعانق الصندوق، حتى أشرقت الشمس لم يكن يعرف ماذا يفعل كطفل صغير ينتظر والدته تقول له ماذا يفعل، أتى بقطعة قماش كبيرة وضع داخلها الصندوق وخبأها أسفل فراشة... وخرج سريعًا ذاهبًا إلى يعقوب.... وكالعادة، كان يعقوب جالسًا كما هو..... كانت علامات التوتر ترتسم على وجه طوخي، الذي جلس وهو يلهث قائلًا: ماذا أفعل بالصندوق؟ ولمن أبيع هذا الذهب؟ القرية صغيرة وكل الموجودين كما تعلم فقراء من أين لهم بالمال، وبالتأكيد لن أقوم ببيع الذهب لشاكر... قال له يعقوب: قم ببيع أي شيء لديك، ثم اذهب إلى المدينة، وقم ببيع الذهب لكن لا تبعه كله في مكان واحد، حاول أن تجد ثلاثة أو أربعة لتبيعه لهم، لكن عليك أن تتعهد لي الآن بشيء، قال طوخي ما هو؟ قال يعقوب: عليك بإخراج جزء من المال الذي ستحصل عليه على أهل القرية؛ لتساعدهم فجميعهم فقراء إلا القليل... لم يتردد طوخي بالموافقة السريعة، أنهى يعقوب الحوار، وقال لطوخي: هيا اذهب فاليوم أفضل يوم لتنفيذ الأمر، هيا.

تركه طوخي وذهب إلى أرضه، أخذ منها بقرته الصغيرة وذهب

بها دار إدريس فهو أفضل حالًا من باقي أهل القرية، ليس ثريًا بمعني الكلمة، ولكنه ميسور الحال بعض الشيء.... لم يكن إدريس في حاجة لشراء تلك البقرة، لكن طوخي بكى وقال إنه في حاجه شديده للنقود.. رضخ إدريس له واشتراها، وذهب بعدها طوخي لدار والدته ليطمئن عليها وعلى زوجته وابنته فاتن، ثم عاد إلى داره وأخرج الصندوق، وقسّم الذهب على أربعة أقسام، وصرهم بقطع قماش حول بطنه، وذهب إلى المدينة.

كان أول ما فعله شاكر عندما استيقظ هو الذهاب إلى غرفة نبيلة؛ ليطمئن عليها، مسح بيده على رأسها، وجلس جانبها على الفراش يتأمل ملامحها الجميلة، التي يعشقها، وهمس في أذنها قائلًا جميلتي.. ملاكي الجميل استيقظي هيا، أريد أن أتناول الإفطار معك، لكن نبيلة لم تستجب له. أمسك يدها برفق، وقال لها: هيا فأنا أتضور جوعًا، كانت يدها باردة كالثلج، حاول أن يجذبها لتنهض، هي لا تتحرك، لا يدري ماذا يفعل. إلى أين يذهب، حدث لها هذا أمس وذهب للمستشفى، وقال له الطبيب ليس بها شيء، قبل أن يعلو صياحه ويحملها ويركض بها إلى هناك تذكر ذلك كله ولم يخرجه منه إلا صوتها.....

فتحت عيناها وقالت: أبي ما بك، قال لها حبيبتي هل أنت بخير، إنكِ باردة كالثلج وأنا جوارك أحاول أن أوقظك فلا تستجيبي، كانت تنظر له شاردة الذهن كأنها لا تفهم ما يقوله، قال لها: نبيلة أتسمعينني، نظرت له نظرة لا معنى لها، كأنها لا تستوعب الأمر، فقال لها: انهضي هيا بنا حبيبتي لنذهب للطبيب.

أمسكها بين ذراعيه؛ فسقطت منه على الأرض لم تحملها

قدماها.... كاد أن يُجن لثانية أو أكثر، فقد أظلمت الدنيا أمامه، وقد سقط قلبه بسقوط نبيلة.

وبلهفة ورعب وقلق صاح: ابنتي ما بكِ بالله عليك انهضي، بدأت دموعه تنهمر، يحتضنها وهي ملقاة على الأرض لا تبدي أي حركة، يحاول أن يسندها بيده لتقف، لكنها عاجزه عن النهوض، ثم تمالك نفسه، وحملها ووضعها على الفراش، ثم صرخ في خادمه قائلًا: اهبط سريعًا وقل للسائق أن يذهب ويأتي بالدكتور محمد العربي . وهو الدكتور الوحيد الذي يوجد في القرى القريبة من القرية . على وجه السرعة، فلا مجال لتضيع الوقت، فالمسافة التي ستأخذها السيارة إلى المستشفى كبيرة، استيقظت إلهام على صراخه في الخادم؛ اقتحمت الغرفة فلم تستوعب الأمر؛ فقد كانت نبيلة ترقد على فراشها وشاكر بجانبها، يمسك بيدها؛ سألته بتوجس: ما الأمر ما بها، تكلم يا شاكر..... تكلم.

قال وقد غلب على صوته البكاء: لا تستطيع الوقوف، ولا الكلام، تكلمت كلمه واحدة فقط، ثم عجز لسانها بعدها، امسكي يدها إنها باردة كالثلج، لا أدري ما بها.. أو ماذا أصابها. قلت هذا أمس لهذا الدكتور اللعين ولم يصدقني..

أمسكت إلهام يد نبيلة اليسرى واجهشت بالبكاء، وقالت بالله عليك يا ابنتي تكلمي، قولي لي ما بكِ حبيبتي، كانت نبيلة تنظر لها دون أي تعبير يرتسم على وجهها، كأنهما يتكلمان لغةً لا تعرفها، ظلا هكذا حتى أتى الطبيب، وسألهما عما حدث، روى له شاكر ما حدث، ثم جلس الطبيب بجوار نبيلة وأمسك يدها وأخرج سماعته الطبية؛ ووضعها حول عنقه، وقبل أن يضعها على

قلب نبيلة مثلما يفعل أي دكتور.....(أنا بخير)....

نطقت بها نبيلة بمنتهى الهدوء، قال الطبيب بماذا تشعرين، قالت بثبات: لا شيء أنا بخير، لا أعلم ماذا يحدث، من أنت؟!! تبدو طبيبًا، أبي.. أمي.. ما بكما؟!! لماذا تبكيان؟ لم ينطق شاكر أو إلهام.

قال الطبيب بهدوء أريد منك النهوض، قالت ببراءة: حاضر أيها الطبيب، وبالفعل وضعت قدمها على الأرض ووقفت قال لها: هل هناك ألم، أتشعرين بالتعب، هل تشتكين من أي شيء؟ قالت بابتسامة باهتة: لا أنا أشعر بأني في أفضل حال، أبي أمي لماذا تبكيان؟ وما سبب حضور الطبيب في هذا الوقت الباكر؟!

كان شاكر في حاله ذهول لا يصدق ما يحدث؛ فالأمر كله حدث أمامه، ولو كانت إلهام هي من قالت هذا لما صدقها، نظرت له نبيلة مرة أخرى وكررت سؤالها: لماذا أحضرت الطبيب؟!! ألم تقل لي أن أنهض؛ لأنك تتضور جوعًا، أين ذهبت؟!....

ظل شاكر صامتًا لا يعلم ماذا يقول لها، لو لم تكن إلهام قد دخلت الغرفة ورأت حالتها؛ لظن أنه يتوهم، فكّر كثيرًا قبل أن يجيبها، قال لها: لا شيء حبيبتي، إن الطبيب قد أتى لزيارتي، وطلبت منه أن يقوم بالاطمئنان عليكِ لتعبك بالأمس...

ضحكت وداعبته وقالت: لا تخف يا أبي إني بصحة جيدة كحصاني بدر، الذي أمتطيه كل يوم.... أشار شاكر للطبيب بالخروج من الغرفة، وترك إلهام بجوار نبيلة قبل أن يرمق إلهام بنظرة نارية تحذيرية ألا تقول لها أي شيء مما حدث.

خرج شاكر وقال للطبيب: ما بها يا دكتور، قال له: نبضها سليم كذلك الضغط، لا شيء ظاهري ينبئ بأي مشكلة، سمعتك تقول بالداخل إنها كانت بالمشفى أمس، هل أجريت لها أي فحوص؟ أجاب شاكر بسرعة: كل الفحوص التي تتخيلها، لم نترك شيئًا.

وكل الفحوص أثبتت صحتها... لم يجد الطبيب ردًا فصافحه وانصرف.. وترك شاكر في حيرة من أمره، شارد الذهن يفكر فيما أصاب ابنته الوحيدة ... إن الأمر غريب وعجيب فلا توجد أي مشكلة جسدية أو عضوية، تمنى أن يكون هناك داء؛ كي يكون هناك دواء؛ علَّه يرتاح بوجود سبب!

حسم أمره وقال: يجب أن أجرى لها فحصًا شاملًا في مكان آخر، سأذهب بها إلى أكبر مشفى بالقاهرة.

لم ينتظر كثيرًا ففي اليوم التالي كان شاكر وزوجته ونبيلة في القاهرة، وأجريت لها كل الفحوص والأشعة المطلوبة، وانتظر ظهور النتائج باليوم التالي، ظهرت النتائج كلها جيدة ولا يوجد لديها أي شيء... اطمأن قلبه بعض الشيء، وعاد إلى القرية مرة أخرى، ولكن بعد ثلاثة أيام فقط من عودتهم عادت تلك الحالة الغريبة لنبيلة.. ولكن هذه المرة كانت بشكل آخر.

فقد كانت نبيلة تتناول غدائها مع والديها، ثم سقطت رأسها على المنضدة، صرخت إلهام وهرع شاكر إليها، وحملها إلى الفراش وظل بجوارها، كان يشعر أنها ستستيقظ من الإغماء كما يحدث كل مرة، لكن جانبه الصواب فيما اعتقد؛ فبدأت نبيلة تتمتم ببعض الكلمات غير المفهومة، كانت تهذي بشكل غريب، ثم صرخت صرخة سمعها كل من في القصر... واستيقظت في ظل

ذهول ورعب شاكر عليها، تركها وخرج من الغرفة وهو في حال لا يرثى لها، ماذا يفعل، ماذا أصابها؟ ثم هبط سريعًا كان العمدة ينتظره في بهو القصر.

سأل العمدة شاكر بلهفة: ماذا أصاب نبيلة هانم يا سيدي!! لماذا تصرخ هكذا ما بها؟ نظر له شاكر وعلامات الحزن ترتسم على وجهه، وعيناه زائغتان كغريق يحاول أن يتشبث بقشة.

قصّ للعمدة كل الأمر. في لحظة نادرة لشاكر نسى فيها غروره وطغيانه؛ فقد كان في حاجه لأن يتحدث لأي شخص أمامه. صمت العمدة برهة بعد أن أنهى شاكر حديثه، ثم قال: سيدي: هناك رجل عجوز في القرية يُدعى يعقوب، لا يذهب إليه أحد من فقراء القرية بمرض أو علة أو حتى مشكلة إلا ويعالج الأمر، ثم نظر إلى الأرض في خجل، وقال: حتى أنا كنت أُرسل له غفير من الغفراء بشكواي ويعود لي بدوائها دون أن يعلم أن الشكوى خاصة بي.... كان شاكر ينصت باهتمام، لكنه لا يفهم ما يرمي إليه العمدة.

ثم سأله أتقصد أنه طبيب أم ماذا؟! حاول العمدة أن يبدو كمن يعلم ببواطن الأمور، ثم قال: لا يهم سيدي إن كان طبيبًا أم ساحرًا أم دجالًا. المهم أن يشفي ويعالج الهانم الصغيرة.... استعاد شاكر مرة أخرى جبروته وقال بحدة: آتني به حالًا الآن...هيا... ارتبك العمدة من طلب شاكر وفكر لمدة دقيقة كيف يقولها له.... فيعقوب لا يذهب لأحد مهما كان، لا يتذكر أحد يومًا أنه رأى يعقوب يومًا ما في القرية، أو خارج دياره، حتى قفزت فكرة في ذهنه، أو حجة يستطيع الخروج بها من هذا المأزق، وقال: سيدي

إن يعقوب رجل عجوز مسن لا يستطيع الخروج من داره، وكل من يريد أن يساعده يذهب له، ليس تكبرا منه، أو غرورًا، ولكن عامل السن يا سيدي، ثم أكمل بذكاء كي يثير شغف شاكر: لكن صدقني سيدي إنه بارع، فلم أجد مثله من قبل، ستعود ابنتك بخير من هناك.

أخرج شاكر غليونه وأشعله ونفس دخانه بعصبية، وصمت، فهل يتنازل عن غروره وكبريائه ويذهب إلى فلاح عجوز؟!! أم يرسل إليه رجالًا يحملونه ويأتوا به إليه؟! إنه هو من يحتاجه، لا أمل الآن إلا في هذا العجوز، إن الأمر يستحق التنازل....

***

سادن المدير يريدكِ حالا، يبدو عليه الغضب الشديد، فماذا فعلتي أيتها الحمقاء؟ قالتها هالة وهي تضحك، رمقتها سادن بنظره نارية، وبعصبية كعادتها.... تبا له هذا الساذج سيوبخني كما يفعل كل يوم؛ فهو لا يشعر أنه أتى إلى العمل إلا عندما يوبخني... لذا أسمع ما يقوله، وأقول له أمرك سيدي، وأتركه وأعود... وأفعل ما أريد.

دعك منه سأذهب له بعد أن أنهي كوب النسكافيه قبل أن يبرد، ضحكت هالة وقالت لها أشفق كثيرًا على من سيتزوجك، فأنا واثقة أنه سيصاب بجلطة دماغية بعد أسبوع من العيش معك..... امتعضت سادن وهزت رأسها معترضةً على ما تقوله هالة، ثم ارتشفت النسكافيه، وقالت: أسبوع؟.... ليته يتحمل.

وضحكتا معًا ثم نهضت سادن وذهبت للمدير، طرقت الباب وهي

تحاول أن تكون هادئة... قال بحزم: ادخلي يا أستاذة سادن، دخلت ووقفت أمام المكتب...

- قال لها: لا لا اجلسي، ماذا تحبين أن تشربي؟ ابتسمت في خجل وقالت:

- انتهيت حالا من شرب النسكافية، لكن لن أرفض عرضك أريد قه.... وقبل أن تكمل... انطلق صائحًا كمن لدغه ثعبان: أتمزحين، بعد أن سببت كارثة للشركة هل تعلمين أن رحلة أمس تم إلغاؤها بسببك، ثلاثون حجز تم إلغاؤها... فبعد أن أرسلنا إلى الفندق ليقوم بحجز ثلاثين غرفة للمسافرين نسيتي حضرتك ـ أيتها العبقرية ـ أن تبلغي سائق الحافلة بالرحلة، فذهب المسافرين إلى مكان الحافلة ولم يجدونها، بالإضافة إلى أن الفندق في أسوان أرسل فاكسًا اليوم بعدم إتمام التعاقد معنا، وقاموا بفسخ العقد معنا... وليس هذا فحسب، بل وقّعوا على الشركة غرامة كبيرة..

- أنا سعيد بكي حقا، لو كان الأمر بيدي لفصلتك عشر مرات، ثم هدأ بعض الشيء وتراجع في مقعده وقال لها بهدوء: أنا أعمل هنا منذ خمسة عشر عامًا لم أصادف موظفة مثلك، حقا أنا فخور بكِ لم تنطق سادن بحرف.

- تذكرت الآن فقط أنها بالفعل ـ أمس ـ نسيت أمر الرحلة تمامًا.. ثم حاولت احتواء الأمر وقالت :

- أعتذر بشدة يا سيدي فقد كنت....

- لم يدعها تكمل الجملة، قال بسرعة: سيتم توقيع عقوبة الجزاء عليكِ كي لا تنسِ مرة أخرى.

كورت يدها وسبته مائة مرة في داخلها، لم يسمع بالطبع مديرها، ثم بغطرسة قالت: حسنًا اتخذ إجراءاتك كما تشاء، هل هناك شيء آخر.

- لم يجبها أشار بيده لها أن تخرج.

- خرجت مسرعة، تستشيط غيظًا، لكنها تعلم أنها مخطئة وتستحق العقاب، ذهبت إلى مكتبها، كانت هالة تتحدث في الهاتف مع عميل، جلست وهي تجز على أسنانها، أغلقت هالة الهاتف سريعًا وذهبت وجلست جوارها؛ سألتها عما حدث؛ فقصت لها سادن الأمر.

أمسكت هالة قلمًا كان على المكتب، وقالت: الصراحة معه حق فالخسارة كبيرة، لكن هناك فكرة دارت في رأسي الآن، نشرب فنجان قهوة حتى تختمر ثم أخبرك بها.

أمسكت سادن يدها وقالت: لا عليك قولها الآن فلن أنتظر إعداد القهوة، جذبتها هالة بيدها التي أمسكتها سادن، وقالت لها: تعال نتحدث ونحن في طريقنا إلى كافيه الشركة..

جلستا على طاولة في انتظار القهوة، وقالت لها: ما رأيك أن تقومي بالإعداد لرحلة في مكان جديد لم يذهب إليه أحد من قبل، لكن يجب أن يكون مكان غير معروف وفي منطقة غريبة..

ثم تقومين بالذهاب إلى شركات أخرى أو وزارات؛ لتعرضي عليهم الرحلة، أثق أنكِ ستجلبين عملاء كثر، قاطعها عامل الكافية وهو يضع أمامهما القهوة، ارتشفت منه هالة رشفة وعادت تسند رأسها

على المقعد، وبمنتهي الغرور قالت:

- كنت أنوي أن أقوم أنا بتنفيذ هذه الفكرة؛ لأحصل على مكافأة مجزية، لكن ماذا أفعل أحبك، وبصراحة أريد أن أدينك بشيء؛ لذا عند نجاح الأمر ستصبحين مدينة لي بإنقاذ مستقبلك في هذه الشركة... تركت سادن فنجان قهوتها واقتربت من هالة، وقالت لها بسخرية:

- هالة متى نبت لكي عقل يا حبيبتي، أأنتِ بخير.

- كيف أعدتِ عمل هذا الشيء الذي يقبع في منتصف رأسك إلى العمل..

- هل أصابك تيار كهربي أمس، سمع كل من في الكافية ضحكات هالة التي كادت أن تقف القهوة في مجرى تنفسها، ثم صعدتا لمكتبهما؛ لتبدأ سادن في تنفيذ الفكرة؛ فأمسكت هاتفها المحمول، وبدأت في البحث عن هذا المكان الغريب.

لكن قبل أن تبدأ شردت بذهنها عما يجب أن يكون هذا المكان، منتجع سياحي لا لا، رحلة سفاري بالطبع... لا أريد أمر جديد. قفزت إلى ذهنها فكرة مجنونة، جبل لابد أن يكون جبل، رحلة داخل جبل لم يسمع عنه أحد.. وأدارت محرك البحث بعد أن كتبت مواصفات هذا الجبل، وحدث شيء غريب للغاية، فقد كانت كل النتائج تشير إلى جبل واحد فقط، يقع في الصعيد، اسمه جبل بني حسن!

***

لا أصدق أنه مر على زواجنا شهر، أشعر كأنه كان بالأمس، ستنتهي إجازتنا غدًا؛ وسنعود مرة أخرى للوزارة، لكن عزائي الوحيد أنني سأذهب ويدك في يدي يا أميرتي، ابتسمت ديانا وقالت: أتدري يا حسام، كنت أخشى أن تطلب مني أن أترك العمل بعد زواجنا، لكنك تركت القرار لي.

نظر لها حسام بثقة وقال: كان من الممكن أن أرفض أن تعملي بعد الزواج، ثم همس في أذنها لكنك تعملين معي فكيف أترك الفرصة أن تكوني بجواري حتى في العمل، ابتسمت ديانا بخجل؛ ووضعت يدها حول عنقه، وقالت: من أين تأتي بهذه الكلمات الساحرة، فأنت بالفعل ساحر، من يستطيع إقناع أبي هذا الصعيدي القوي بأن تتزوج ابنته المدللة فهو ساحر... ثم تركته وركضت تجاه المطبخ كمن يحاول اللحاق بقطار مسرع.

يا إلهي لقد نسيت الطعام على الموقد، كانت رائحة الطعام تدل على أنه احترق بالكامل؛ لذا قال لها: اتركيه، ستتناول الغداء في الخارج، هيا ارتد ملابسك.....

كان أمجد في انتظارهما في تمام السابعة صباحًا على باب الوزارة، وهو يحمل الورود مع بعض من زملائهما، عانق حسام بقوة، وبارك له، وقال: أرأيت كم أنا صديق مخلص، لم أتصل بك طوال شهر العسل، قاومت هذه الفكرة كثيرًا، فأنت تعلم كم أعشق هذا المزاح، ضحك حسام وتركه وصافح باقي زملائه المنتظرين أمام مدخل الوزارة، ثم ذهب إلى مكتبه؛ ليباشر عمله وترك ديانا مع صديقاتها.

وعندما عاد أمجد إلى مكتبه كانت هناك حسناء في انتظاره،

أطلق أمجد صفيرًا مكتومًا عند رؤيته لها، نهضت وصافحته، ثم عرفَّت نفسها له: سادن من شركة لتنظيم الرحلات، أشار لها أمجد بالجلوس، ثم جلس هو وسألها ماذا تحب أن تشرب، ابتسمت وقالت: أشكرك، ثم أكملت سأدخل في الموضوع مباشرة.

إن الشركة تنظم رحلة فريدة من نوعها، جديدة ومختلفة عن أي رحلة أخرى، لن أقول لك أماكن سياحية أو شواطئ أو حتى متاحف أثرية، لا، إن المكان الذي سنذهب إليه لم يذهب له أحد من قبل، سنذهب إلى جبل في منطقة بعيدة أقصى الصعيد، وسنمكث هناك أسبوعًا كاملًا كأننا عدنا إلى العصور القديمة.

لذا فأنا اخترت وزارتكم؛ لعرض الأمر على العاملين من أجل الحجز قبل أن يغلق بابه.

كان أمجد يسمعها بقلبه قبل أذنه، ودون تردد قال لها سنذهب بالتأكيد، يالها من فكرة رائعة.. وبحس الأنثى علمت أن أمجد مستعد لأن يفعل أي شيء؛ لينال رضاها، فطلبت منه أن يساعدها في جمع أكبر عدد من العاملين للحجز في الرحلة بصفته يعمل في العلاقات العامة، قال لها بثقة: شديدة لا تقلقي سأجمع لكِ نصف الوزارة، لكن مبدئيًا هناك ثلاثة أسماء تستطيعين الحجز لهم بكل تأكيد، أنا وزميلان: العروسان الجديدان (حسام وديانا)، سأقوم بالحجز لهما، كهدية زفاف مني، ابتسمت سادن، ثم سألت أمجد بخبث: الآن تحجز لزوجتك أو خطيبتك، قال لها بلهفة: لست متزوجًا أو حتى مرتبطًا بأحد، لكني اليوم سأفكر في الأمر بجدية.

نهضت سادن، وصافحت أمجد على وعد منه أن يساعدها في

جمع العاملين للذهاب للرحلة، لكنه فاجأها بطلب رقم هاتفها وقبل أن تعترض قال لها:

- حتى أتابع معك الإعداد للرحلة، كانت حجة ضعيفة للغاية، لكنها راقت لسادن التي أعطته رقم هاتفها.... وبدأ أمجد الإعداد والإعلان للرحلة.

ثم اقتحم مكتب حسام مسرعًا، وهو يقول: أعددت لك مفاجأة مذهلة، قمت بالحجز لك أنت وديانا لرحلة رائعة جميلة كالقمر، قاطعه حسام في اندهاش:

قمر!!! مَنْ القمر.. الرحلة!! ارتبك أمجد وضحك، وقال: أقصد رحلة مذهلة....

صدقني ستروق لك أنت وهي للغاية، جبل، مخيمات، وأسبوع كامل داخله، أو بين أروقته لا أعلم المهم أننا سنستمتع للغاية.

***

متي سنذهب، قالها شاكر للعمدة بعد أن نزل من أعلى، فقد صعد بعد سماع صوت نبيلة تصرخ وتعود مرة أخرى إلى ثباتها أو فقدانها للوعي... قال له العمدة: ألن ترسل أحدًا من الخدم لديك مثلما أفعل أنا....

- صاح شاكر فيه قائلًا: لا أحب أن يعرف أحد بالأمر أيا كان هو. سيكون هذا الأمر بيني وبينك وبين هذ اليعقوب فقط، لا أحب أن يعلم أهل القرية أنني لجأت لساحر أو دجال أو شيخ، أيُعقل أن أفعل مثلهم، هيا نذهب الآن فكل أهل القرية نائمون...

- دون تـردد أمـاء العمدة برأسه بالموافقة، وركبا سيارة العمدة وذهبا إلى يعقوب.. كانت الساعة تشير في يد العمدة إلى الثانية عشر بعد منتصف الليل، والطريق من قصر شاكر حتى دار يعقوب الذي يوجد على أطراف القرية وأقرب المنازل للجبل - لا يستغرق سوى عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة، لكنهما استغرقا ساعة كاملة فـي طريقهما إلـى هنـاك دون سبب واضح لهذا، وعندما ترجل العمدة وشاكر من السيارة التي وقفت أمام دار يعقوب - الذي كان يجلس في وسط دارة وبجانبه مصباح ضعيف الإضاءة. كانت ملامح يعقوب واضحة للغاية كأنه هو من يضيء المكان.

كـانت الأجـواء مقبضـة للغايـة لـدى شـاكر؛ لـذا سـبقه العمـدة بخطوات، الذي وصل أمام يعقوب أولًا، ألقى السلام عليه، وتبعه شاكر، الذي لم ينطق، وتحوّلت ملامحه القوية الصارمة وغروره وتعاليه إلى قلق وخوف دون سبب؛ وذلك لأن ليعقوب رهبة لا يعلم أحد سببها.

رد يعقوب السلام دون أن ينظر للعمدة فقد كان بصره معلقًا على شاكر، الذي كان يحاول استعادة قوته أمام يعقوب، الذي باغته قائلًا: بما أستطيع مساعدتك، نظر شاكر للعمدة كمن يستنجد به ليتحدث هو، فقال العمدة إن شاكر يا.... رمقه شاكر بنظرة نارية مما جعل العمدة يحاول تصحيح الأمر، أسكته يعقوب، وقال إن أردتـم مسـاعدتي لكمـا فـيجب أن تقـولا الحقيقـة، وإن كنتمـا لا تريدان فلا حاجة لكما بي، هنا تكلم شاكر: إنها ابنتي الوحيدة... وبـدأ شـاكر فـي قـص مـا حـدث لها وما أصابها منذ فتـرة.. كان يعقوب ينصت باهتمام بالغ وابتسامة خفية، كانت ترتسم على أطراف شفتيه كأنه كان يعلم ما الذي أتى بهما إليه.

أنهى شاكر حديثه، وتنهد تنهيدة كبيرة كمن كان يجاهد في الحكي، ونظر إلى يعقوب الذي ظل صامتًا لمدة خمس دقائق، لم يجرؤ فيهم العمدة أو شاكر أن يفتحا فاهما.. ثم ترك يعقوب سبحته واعتدل في مقعده، ونظر في عين شاكر مباشرة، وقال:

- بالتأكيد لا يوجد في هذا العالم أغلى من ابنتك يا شاكر باشا، اندهش شاكر وتعجب من معرفة يعقوب بصفته.

- أجاب باستسلام، بالطبع فهي أغلى ما أملك، بل كل شيء لي..

- أكمل يعقوب بهدوء، هل أنت على أتم الاستعداد لتنفيذ ما أطلبه منك في سبيل شفائها.

- أجاب شاكر بلهفة وسرعة بالتأكيد، اطلب ما شئت ستنال.

- ضحك يعقوب وهي من المرات القليلة أو النادرة التي يضحك فيها.. ثم قال:

- لا لست أنا، أنا لا أريد شيئًا، ستشفى ابنتك بإذن الله؛ لكن يجب عليك أن تنفق كثيرًا على الفقراء، أن تخرج الكثير والكثير من الأموال على فقراء القرية، وألا تتعالى عليهم بعد الآن، إن الظلم مؤلم وأكيد تفهم ما أعنيه يا سيدي...

- قال شاكر وقد بدا عليه القلق، لماذا تقول لي هذا هل تعلم من أنا؟

- لم يجب يعقوب وأكمل: هل توافق على ما قلته؟ نعم أم لا. فقط عليك الرد بإحدى الكلمتين.

وكأن هناك ما جعل شاكر يخلع رداء الغرور والتكبر ويتركه عند باب يعقوب...

حاول كثيرًا أن يعترض كلامه، أو يوبخه، لكن شعر بالضعف، فقال:

- نعم.. نعم أوافق، ولكن كيف ستشفي نبيلة.

- أجابه يعقوب بعد أن أخذ نفسًا عميقًا قائلًا: إذن سأعتبر موافقتك اتفاقًا، ثم اقترب من شاكر، ونظر له بصرامة مما جعل شاكر والعمدة ـ الذي نسي أمره تمامًا ـ يرتعدان من داخلهما، وقال:

- لكن حذار أن تخلف وعدك أو تتوقف يومًا عن الإنفاق؛ فحينها سيكون الثمن باهظًا للغاية، تذكر كلماتي جيدًا.

- أشار شاكر برأسه بالموافقة... قال يعقوب حسنًا، عد إلى قصرك الكبير؛ واصعد إلى غرفتك ولا تقترب أنت أو زوجك من غرفة نبيلة أبدًا، حتى وإن علا صراخها إلى آخر القرية، وفي الصباح لا تذهب إليها اتركها حتى تأتي هي لك، وكعادته دائمًا يترك من يقف أمامه ويدخل غرفته.

نهضا دون أن ينبسا ببنت شفة، واستقلا سيارتهما التي عادت إلى قصر شاكر في زمن لا يتجاوز العشر دقائق.. دخل شاكر القصر وهو يعيد في ذهنه كل ما حدث وما دار بينه وبين يعقوب، ثم شعر بعد أن عاد إلي رشده مرة أخرى بالخزي؛ فلام نفسه ألف مرة على صمته وطاعته في حضرة يعقوب وهو شاكر باشا، فكيف له أن يصمت على تعاليه عليه، فلم يجرؤ أحد أن يتكلم معه هكذا، أو أن ينظر له مثلما نظر يعقوب هذا، ثم نظر إلى غرفة نبيلة وهمّ

بالصعود لولا أن تذكر ما قاله يعقوب.

غروره كان يأبى أن ينفذ ما أمره به، لكن خوفه على ابنته ورغبته في شفائها جعله يتراجع، وقال لن أخسر شيئا سأنفذ ما طلبه، ثم قام بالنداء على زوجته وذهب لغرفتهما وغط في نوم عميق، استيقظ في الصباح، ولحق بإلهام وهي على أعتاب غرفة نبيلة أمسكها من يدها، وقال لها: اتركيها. فعلت علامات الدهشة وجه إلهام، وحدثت نفسها قائلة: هل جن هذا الرجل، ومن أين له بهذا الثبات؟ كاد أن يموت رعبًا عليها بالأمس، واليوم يتعامل بمنتهى اللا مبالاة، كانت تنظر إليه بمنتهى التعجب وهو يأكل بنهم، أما هي فلم تتذوق أي شيء من الطعام الموجود أمامها... ثم فجأة وجدت من يضع يده على كتفها وهي جالسة أمام شاكر؛ نظرت إلى الخلف فوجدتها...

كانت نبيلة التي وقفت أمامها، ووجهها مشرق كالشمس.. اختفى شحوبها تمامًا.. كانت في أبهى صورها ونضارتها.. ورغم أن شاكر كان يعلم أن من الممكن أن يكون يعقوب على صواب كانت دهشته أكبر من إلهام.

إذن هذا الرجل لا يهذي إنه بارع، لا بل ساحر.. كيف فعلها، نهض سريعًا وعانق نبيلة بقوة، دمعت عيناه فما كانت تبدو عليه يدل أنها شفيت تمامًا، استمر العناق لأكثر من دقيقة حتى سمعها تهمس في أذنه قائلة: هناك رسالة أحملها إليك، عليك بتنفيذ وعدك... قالها لي كهل في حلم لي بدا كأنه حقيقة.

أماء شاكر برأسه بالموافقة؛ فهو الآن مستعد لتنفيذ أي شيء حتى تظل نبيلة هكذا، وبالفعل بدأ باستدعاء كل الخدم لديه،

وإعطائهم مكافآت مجزية لهم بمناسبة شفاء نبيلة، بل أعطى لهم تعليمات بأن يخبروه عن أكثر الناس فقرا في القرية ليساعدهم، كـان الخـدم ينظـرون إلـى بعضـهم البعـض غـير مسـتوعبين مـا يسمعوه، وظنوا أنه يمزح معهم، لكنهم لم يروه يومًا يمزح مع أحد إلا أصدقائه الأثرياء مثله في حفلاتهم....

لم تعش قرية إتليدم أشهرًا سعيدة مثلما عاشت في هذه الفترة، فقـد ارتفـع مسـتوى المعيشـة كثـيرًا، وعـادت أراضٍ كثـيرة إلـى أصحابها، بل الأكثر من هذا أنه أعاد الأرض دون تُرد له الأموال القليلـة التـي دفعهـا لـهم، فقـد أعـاد جزءًا من الأرض، لمن كـانوا فقراء للغاية.

وتزوجت نبيلة من صديق لشاكر كان يقطن في القاهرة، ووزع شاكر كثيرًا من الأموال على أهل القرية، الذين نسوا أمر يعقوب لبعض الوقت، فلم يعد يذهب إليه الكثيرون لحل مشاكلهم، بل كان ذهابهم له فقط في حالة إصابة أحدهم بمرض.. لكنه كان سعيدًا بما حصلوا عليه.

بالتأكيد أصبح طوخي من الأثرياء ولم يلحظ أحد هذا في ظل ما يفعله شاكر حتى شاكر نفسه لم يهتم بالأمر.

مـر عـام وأصبـح لشـاكر حفيـد أو حفيـدة علـى وشـك الوصـول، ورويدا رويدًا بدأ ينسي أمر الوعد، أنجبت نبيلة ابنتها فريدة؛ فكـانت سـعادته لا توصـف بـها؛ لـذا سـافر إلـى القـاهرة لأجلـها خصيصًا. احتفل بها وعاد مرة أخرى إلى القرية، بعد أن طلب من نبيلة أن تعود إلى القرية؛ ليمضي بعد الوقت معها ومع حفيدته، وعند عودته كان العمدة في انتظاره، وحين التقاه قال له العمدة:

- سيدي علمت أن هناك طريقًا سيتم إنشاؤها داخل القرية؛ لربطها بباقي القرى، وإن الكثير من الأراضي داخل القرية ستكون مطلة عليها؛ مما سيجعل هذه الأراضي ذات قيمة عالية للغاية، ومنذ عام كانت تلك الأراضي ملك لك، لكنك تركتها للفلاحين... أعلم لماذا، لكن الحمد لله ابنتك الآن في أحسن حال، ثم إن أهل القرية الآن أصبحوا يملكون الكثير من المال، وهذا يُصَّعب مهمتي في السيطرة عليهم.. هل تصدق سيدي أن أحدهم يومًا طلبت منه أن يحضر لي في أمر ما فلم يأتِ... بالإضافة إلى أنهم أصبحوا لا يهابون أي أحد... كررها العمدة مرتين وهو ينظر إلى شاكر نظرة مباشرة، وكأن الشيطان كان يحتلها.

- انفعل شاكر لما قاله العمدة، وكمن أعاد وحشًا كان نائمًا فترة طويلة، قال للعمدة: كيف لا يهابون أحدا، أرسل فقط أحد رجالك لأي فرد في القرية يخبره أني أريده، سيأتي لي زاحفًا، ضحك العمدة بخبث، وقال سريعًا:

- ومن قال إني لم أفعل هذا، سيدي الأرض الآن سيتضاعف ثمنها أضعافًا، والفلاحون يمتلكونها وهناك الكثير من خارج القرية حين يعلمون بالأمر سيأتون ليشتروا الأرض، وبهذا سيكونون سادة القرية.

- صاح شاكر فيه: أخرس، أنا فقط سيد هذه القرية.. سنكرر ما كنا نفعله سابقًا.. سأستعيد الأراضي مرة أخرى.. ولو بالقوة، لا بل بقوة أكثر من ذي قبل.

كاد العمدة يصفق لما سمعه من شاكر، وبدأ شاكر بعدها في

الاستيلاء على كل ما أعاده لأهل القرية، بل أخذ أكثر من هذا، وكان كل من يحاول أن يوقفه أو يعترض؛ يتعرض للضرب والإهانة، بل كان العمدة يأمر بالقبض عليه، ويتم ضربه من قِبل رجال شاكر والعمدة، وعاد شاكر أكثر شراسة وطغيانًا عن ذي قبل، لدرجة أنه كان عندما يعلم أن أحدًا من القرية لديه بعضًا من الأموال يقوم بحرق منزله.

يريد أن يقف أعلى قبة قصره ويصيح أنا السيد، أنا فقط هنا المتحكم، أصيب الكثير من الفلاحين بالمرض من جراء تجريدهم من أراضيهم وسلب حقوقهم، وعادوا للذهاب إلى يعقوب، يشتكون مما يحدث لهم.

في ذلك الوقت كانت نبيلة منشغلة مع ابنتها فريدة، ولا تدري ما يحدث في القرية، فقد كان شاكر حين يعود إلى قصره لا يفعل شيئًا سوى اللهو مع فريدة، ويدلل نبيلة جميلته، حتى سقطت منه نبيلة مرة أخرى كما كانت تسقط في الماضي..

أسقط ما في يده.. فلم يكن يعلم أو يتخيل أنه من الممكن أن يحدث هذا مرة ثانية لها، ألجمته الصدمة، فبعد أن سقطت أمامه وحاول إفاقتها؛ فلم تستجب، كان يردد داخل عقله لا لا لا ليس مرة أخرى أرجوكِ.

بكى لأنه كان يعلم أن الثمن لعلاجها هذه المرة سيكون باهظًا، ولأنه سيُجبر للذهاب لهذا العجوز الذي يخشاه، نعم كان شاكر يرتجف من فكرة رؤيته دون سبب معلوم... شعر حينها كأن جبلا أُلقي على صدره، تركها في غرفتها وأرسل في طلب العمدة، الذي جاء مسرعًا.

- قال له شاكر باقتضاب أريد الذهاب ليعقوب ليلا كما فعلنا من قبل.. صُدم العمدة مما سمع، وقال بسرعة لشاكر: لِمَ يا باشا، ماذا تريد منه، رد شاكر غاضبًا: لا تسل، سأنتظرك بعد منتصف الليل كي نذهب له.

وعندما دقت الساعة الثانية عشر مساءً أتى العمدة؛ وذهب مع شاكر ليعقوب، وفي الطريق حكى شاكر للعمدة ما حدث لنبيلة، وكيف عادت لما كان يحدث لها في الماضي.. أماء العمدة برأسه وفهم الأمر، كاد أن يقول لشاكر شيئا ثم تراجع عنه.

ترجلا من السيارة، كان يعقوب يجلس كعادته لكن هذه المرة كان وجهه عابسًا للغاية، لم تختلف رهبته التي ألقاها سابقًا بنفس شاكر، بل على العكس زادت.

دخلا الدار وجلسا أمامه، ولم ينطقا، اعتمدا على بعضهما؛ ليتحدث أي منهما، يبدو أن وجه يعقوب العابس هو ما ألجمهما؛ لذا تكلم هو..

ماذا أتى بكما إليَّ؟! ماذا تريدان؟.. أجاب شاكر بخضوع: ابنتي عاد لها المرض الغامض مرة أخرى و.. قبل أن يُكمل قاطعه يعقوب بحدة: وماذا تريد مني؟! ارتسمت علامات التعجب على وجه شاكر الذي قال: أريدها أن تشفى، اصنع معها ما فعلت من قبل.

اقترب يعقوب ليجلس على حافة مقعده، ونظر إلى شاكر وقال: آسف لا أستطيع مساعدتك، صُعق العمدة من رد يعقوب، وفغر شاكر فاه قبل أن يعود ويسأل: ماذا؟

- ماذا تقول.. لا تستطيع أن تساعدني.. كيف ذلك؟!

- قال يعقوب مثلما سمعت لا أستطيع، كان رد يعقوب كفيل بجعل شاكر يتغلب على رهبته ويصيح في يعقوب:

- كيف لا تستطيع؟ أنت من ساعدتني من قبل... ألا تعلم من أنا، كيف تتجرأ وترفض مساعدتي، ستساعدني شئت أم أبيت.

ارتعد العمدة الذي كان يجلس بينهما؛ فالغضب أصبح سيد هذا النقاش.. حاول أن يقوم بتهدئة شاكر، الذي نهض وقال:

- قول لي الآن ماذا أفعل حتى تشفى، لم يُحرك يعقوب ساكنًا، ولم ينطق بكلمة واحدة، ثم نهض من مقعده ودخل إلى غرفته، وتركهما في ردهة الدار دون أن ينبث ببنت شفة.

ثار شاكر وهاج لما فعله يعقوب؛ فأي إهانة أكبر من تلك الإهانة. ذهب مسرعًا إلى السيارة، وركض العمدة خلفه للحاق به، ركبا وانطلق السائق بهما إلى القصر، وطوال الطريق وشاكر يتوعد يعقوب، ثم قال: أعالج نبيلة فقط ثم أعود له، سأرسلها للسفر للخارج، سأذهب بها إلى أي مكان في العالم حتى تشفى..

ظل شاكر ثلاثة أشهر خارج البلاد، من بلد لبلد، ولا أحد يعرف سببًا لحالة نبيلة أو علاجًا لها.. ماتت نبيلة ومات معها قلبه، وكل ما كان يحيا لأجله، وعاد شاكر بجثمانها إلى القرية، وتم دفنها.... كان داخله حزن وألم لا يتحمله بشر، لكن أكثر ما كان يطغى عليه، هو شعور الغضب ممن رفض مساعدته.

عاد مثقلًا إلى فيلته بالكثير من التعب والإرهاق، وذهب إلى

فراشه وهو ينوي في الغد أن يفعل أمرًا ما... وغط في نوم عميق.

***

هاتفك يرن يا سادن، أمسكت هالة بالهاتف وهي في طريقها إلى سادن التي كانت داخل الحمام. تأخذ دشًا ساخنًا، قالت لها سادن وهي تصيح: مَنْ يا هالة؟!

- قالت هالة: أمجد... من أمجد هذا؟

- قالت سادن سأخرج بعد دقائق وأحكي لكِ.

دقائق وخرجت سادن، أمسكت هاتفها؛ وقامت بالاتصال بأمجد، وظلت تتحدث لمدة نصف ساعة تاركةً هالة في الردهة، وقد اقتحمت عليها غرفتها وهي تودعه؛ مما جعلها تنظر لسادن بتعجب وقالت: يبدو أن الأمر هذه المرة كبير ومختلف.

من هذا الأمجد، يبدو أن له مكانة مختلفة عندك، لكن ما أتعجب له أنكِ لم تخبريني بأمره من قبل.. ألقت سادن الهاتف على الفراش وقامت بتجفيف شعرها المبتل، وقالت:

- ستعرفين غدًا في الرحلة، إنه عميل، وهو من ساعدني على تجميع أفراد هذه الرحلة، التي جعلت ولأول مره مديري ـ الغاضب الساخط دائما ـ يرضى عني ولو حتى أسبوع.. - نسيت هالة أمر أمجد وقالت،

- وقد علا وجهها علامات الاعتراض: أمجد من ساعدك فقط، وماذا عن صاحبة الفكرة أنسيتها!، تبًا لكِ أيتها المغرورة العنيدة، ألقت سادن بالمنشفة في وجه هالة وقالت لها:

- أيتها المخبولة كيف أنساكِ وأنت حبيبتي وأختي التي لم تلدها أمي..

- قالت هالة: هيا اضحكِ عليَّ مثل كل مرة أيتها الماكرة، ثم غمزت بعينيها وقالت: ماذا عن أمجد؟

- ابتسمت سادن وقالت في الحقيقة هو مختلف عمن قابلتهم من قبل، خفيف الظل، رائع المظهر، وسيم للغاية، كلامه معسول، ويريد أن يفعل لي أي شيء حتى أكون راضية عنه... لا عليك ستلتقي به غدًا داخل حافلة الرحلة وسترينه.

- قالت هالة وهي تعد الفراش للنوم لا أدري، لماذا أشعر بقبضة في قلبي من تلك الرحلة؟ من الممكن أن يكون بسبب المكان الذي سنذهب إليه، فأنا طوال عمري لم أذهب إلى أي جبال، وعندما أذهب يكون إلى جبل في أقصى الصعيد، وفي منطقه لم يذهب إليها أحد من قبل، لا والأدهى أننا سنخيم هناك لمدة أسبوع...

- قالت سادن وهي لا تبالي: لا تشغلي بالك بالأمر، سيمر الأسبوع سريعًا، ثم سيكون معنا هناك الكثير من الأشخاص، هيا نخلد للنوم فغدًا يوم شاق....

ألقي حسام هاتفه وهو يتمتم ببعض الشتائم، دخلت عليه ديانا مبتسمةً، وقالت:

- ما بك يا حبيبي، هل نسيت شيئًا لم نضعه في الحقيبة أمس.

- قال لها: لا حبيبتي إنه أمجد لم يكف عن الاتصال منذ الرابعة صباحًا حتى لا ننسى موعد الحافلة.

- ضحكت ديانا، لا أدري لِمَ هو مهتم للغاية بهذه الرحلة، هناك سبب ما، والأكيد أنك تعرفه، ابتسمت ابتسامة ماكرة وأكملت: فقد كان يتحدث عن الرحلة والمكان كأنه ذهب إلى هناك عدة مرات، وأنا أعلم أمجد ليس له شغف بالطبيعة.

- ضحك حسام وقال: نعم هو لديه الآن شغف، ولكن ليس للطبيعة لكن لمن دلته عليها، هيا هيا سنتأخر وهو ينتظرنا في مكان قيام الحافلة منذ ساعة.......

وقفت سادن هي وهالة بجانب سائق الحافلة، وبدأت سادن تتحدث للراكبين وتشرح لهم برنامج الرحلة، وتحدثت عن جبل بني حسن وموقعه، وماذا سيفعلون هناك؟ كان برنامجًا مثيرًا للغاية، ومغامرةً رائعةً، من تسلق للجبل والتخييم بجواره.. والعودة للحياة البدائية دون تكنولوجيا.

كان أمجد يجلس في المقعد الأول ينصت باهتمام وهو يهيم بجمالها عشقًا، يبدو أنه لم يسمع حرفًا مما كانت تقول، فقد التفت للخلف ليسأل حسام ما هو برنامج الرحلة مما جعل ديانا تضحك بصوت عالٍ جعل الجميع ينظرون إليها...

توقفت الحافلة في طريق بعيد عن الجبل ـ الذي ظهر أمامهم كوحش ضخم؛ فقد كان جبل شاهق الطول ـ نهضت هالة وطلبت من الراكبين الترجل من الحافلة؛ فلا يوجد طريق ممهد للوصول إلى الجبل، فقد كان على يسار الحافلة طريق ترعة الإبراهيمية، وعلى اليسار قرية صغيره ذات منازل محطمة، وسور يحيط بالقرية معلق عليه لافتة ما، بها اسم شخص غير واضح الحروف؛

مما يجعل دخول حافلة للمكان أمر مستحيل.

أطاع الركاب أوامر هالة، وهبطوا من الحافلة جميعًا وبدأوا السير تجاه الجبل من داخل القرية المحطمة، مالت هالة على أذن سادن قائلة: وسيم للغاية، وعيناه لم تفارقك لحظة منذ قيامنا من القاهرة حتى هنا.

- ابتسمت سادن قائلة: أعلم بالطبع فإن لم ينظر لي فلمن سينظر، هل هناك أجمل مني، قالتها بغرورها المعتاد الجميل، جذبتها هالة من يدها وهي تقول: تبًا لغرورك أيتها الحمقاء، لكن وبمنتهى الصراحة أنت فاتنة، لكن فاتنة لعينة مغرورة.. صديقتي ماذا أفعل أحبك.

- لم يكن يبعدهم عن الجبل سوى أمتار قليلة، كانوا أمامه كالنمل أمام أقدام رجل عملاق، جبل تشعر أن كل حجر به له وجه بشري، وقفوا جميعًا أمامه ينظرون له في دهشةٍ وانبهارٍ وإعجابٍ بل خوفٍ كبير.

لكنهم شعروا بنشاطٍ وسعادةٍ بالغة بهذه الأجواء الجديدة عليهم، فقد كانت رحلة فريدة وغريبة وجميلة في نفس الوقت.. بدأ نصب الخيام.. فتسلل أمجد إلى سادن يطلب منها أن يكون لحسام وديانا مخيم صغير لهما، فهما متزوجان حديثًا، فالاتفاق كان ينص على أن يكون هناك خيمتان: واحدة للرجال وأخرى للنساء، وافقت سادن على طلب أمجد، ثم ذكّرته أن هناك خيمتين فقط، قال أمجد أعلم؛ لذا أحضرت واحدة صغيرة لهما هدية زواجهما.

ضحكت سادن وقالت يعجبني أنك تحب صديقك جدًا، ضحك بخبث وقال: هل هذا فقط ما يعجبكِ بي... تركته وانصرفت وعلى شفتيها ضحكة لم يرها.

وعندما أتى الليل وهلّ القمر على قمة الجبل، جعله أشبه بعملاق يقف على الأرض، كانت ديانا تجلس بين ذراعي حسام داخل الخيمة، يتأملان هذا المشهد الرائع المهيب ـ للكل ـ قالت ديانا: لا أدري لماذا أشعر بألفة غريبة لهذا المكان.

أشعر إنني كنت هنا من قبل، قال حسام: وأنا أيضًا أشعر بذلك، يبدو أننا أصبحنا روحًا واحدةً حقًا فما تشعرين به أشعر به أيضًا.. ثم اعتدلت وجلست أمامه مباشرةً وبحماس غريب قالت له: ما رأيك بفكرة مجنونة، قال: ماهي.

- أجابت بحماسٍ: أن نذهب للسير تحت ضوء القمر، نكتشف أرجاء المكان أنا وأنت فقط، تظلنا السماء ويضمنا القمر بنوره، يا لها من نزهة شاعرية.. إنني منذ أن وطأت قدماي هذا المكان والنشاط يدب فيّ.

- ضحك حسام وقال كنت أعتقد أنكِ ترهبين الظلام، وأن رحلة مثل هذه لم تنل إعجابك، وأنكِ كنتِ تفضلين الذهاب إلى مكان به شاطئ مثلًا.

- قالت بدلال: أحب الاثنين، ضحكا قبل أن يقول حسام: حسنًا يا سيدتي وأميرتي سأنفذ ما تريدين، لكن دعينا الآن نستمتع بتلك اللحظات الرومانسية.. وأحاط بيده خصرها ونظرا إلى القمر سويا، في هذه الأثناء كان أمجد يراقب سادن وهي تجلس وسط

الفتيات، يتحين الفرصة للحديث معها.

كانت سادن تنظر له بطرف عينيها، لكنها لم تنهض، تستمتع بشغفه بها، يروق لها أن تعذبه بعض الشيء، كأي فتاة تبرع في إشعال قلب رجل.. حتى يأس أمجد وذهب للنوم..

نظرت ديانا إلى ساعتها التي تجاوزت الثانية صباحًا، ثم نظرت إلى حسام الذي كانت عيناه تحارب لتظل متيقظة، ثم قالت: هيا أيها السيد، ماذا... هل ستخلف وعدك لي؟! قال حسام بكسل: كنت أدعو الله منذ دقيقة أن تكوني قد نسيتِ الأمر، لكن عندما ترد النساء شيئًا فلا شيء يوقفهن أو ينسيهن.. مالت عليه ديانا بعطف قائلة:

- حبيبي إن كنت متعبًا ولا تريد الذهاب فلا بأس، أخلد للنوم.

- قال لها: لا حبيبتي بعد هذه الكلمات، وتلك النظرة التي تشع حبًا؛ أستطيع العودة للقاهرة سيرًا على الأقدام.. هي بنا، ومد يده وجذبها حتى تنهض، وأمسكت بيدها الأخرى هاتفها، لكن حسام رفض، وقال لها: لا اتركيه حتى لا يفسد علينا خلوتنا في هذه الأجواء تحت القمر... تركته ديانا وتعلقت بيد حسام، وذهبا تجاه القرية المنكوبة.

الصمت يغلف المكان إلا من أصوات الحشرات التي تملأ المكان، لا أثر إلا لحطام المنازل، وأرض بائرة يبدو أنها كانت صالحة للزراعة من قبل، بعض العشب الصحراوي ما يزال ينبت من تلقاء نفسه، الظلام يغلف المكان من كل جانب؛ لذا كانت ديانا ترفع رأسها للسماء لتشاهد القمر المنير..

تتشبث بذراع حسام، لمحت بعينها ضوءًا خافتًا أو وميضًا ثابت الإضاءة، نظرت لحسام وقالت: ما هذا الضوء يبدو أن هناك من يمسك مصباحًا وسط الظلام، ولكن لا أرى أحدًا يمسكه، قال حسام بتوجس: شيء غريب، متى ظهر هذا الضوء، منذ لحظات كنت أنظر في هذا الاتجاه ولم أرَ شيئا..

- قالت ديانا وهي ترتجف: انظر هناك من يجلس تحت هذا المصباح، يبدو أنه رجل عجوز، هيا نذهب إليه، يبدو وكأنه بحاجة للمساعدة.. تردد حسام في الذهاب، وخشي أن يرفض؛ فيظهر ضعيفًا أمامها، وافق حسام على مضض، وبخطوات بطيئة يشوبها الحذر ذهبا باتجاه العجوز، الذي كان جالسًا على الأرض، وكلما اقتربا منه كانت تود ديانا أن تقول شيئًا لكنها كانت مترددة، إنه يشبهه من بعيد... نعم هي لم تره، لكنها رأت صورًا كثيرةً له، ثقلت قدمهما دون سبب، وشعرا أنهما يسيران في وحل سميك.

اقتربا كثيرًا منه حتى تبينت ديانا ملامح العجوز، كانت في حالة صدمة جعلتها لا تنطق... هو أكاد أقسم أنه هو: قالتها بداخلها، وقبل أن يصلا إليه بأمتار قليلة تأكدت أنه هو. قبل أن يسقط العجوز ومعه المصباح ببطن الأرض في هوة عميقة، شهقت ديانا وفزع حسام، ثم ركضا تجاه العجوز، فقد هوي داخل بئر، لم يكونا يتبينا هذه المسافة، فقد كانت بئرًا عميقة للغاية، والغريب أنه كان أسفل منها، كيف كان يجلس عليها العجوز، وهناك فراغ أسفلها؟!

***

استيقظ شاكر في السادسة صباحًا، ارتدى ملابسه وخرج من غرفته، مر على غرفة نبيلة المغلقة فاعتصر قلبه ألمًا وحزنًا، فرت دمعة من عينيه مسرعة تجاه صدغيه مسحها بيده.. ثم قال لنفسه ليس هذا وقت الحزن.. بعد أن أنتهي منه سيكون لديَّ الكثير من الوقت للحزن والبكاء، ولكنني لن أتركه.

هبط سريعًا إلى ردهة قصره، ثم صاح في واحدًا من خدمه قائلًا: استدع العمدة حالًا، وأخبر كل رجالي أن يتركوا العمل في الأراضي اليوم ويأتون إليَّ هنا أمام القصر، لكن استدع العمدة قبل إخبارهم، ركض خادم شاكر سريعًا، وجلس شاكر واضعًا ساقًا فوق الأخرى، يُشعل غليونه بهدوءٍ تام، وبعد نصف ساعة كان العمدة أمامه، أشار له شاكر بيده للجلوس وقال:

- لا أريد أحدًا اليوم بداره، أريد كل أهل القرية، قم بجمعهم.

- كيف؟

- لا أعلم، ولا أريد أن أعلم.

- ما أعلمه هو أن أجد الكل هنا ليلًا، هل تسمعني، الكل يقف أمام داره، ثم يذهبون لدار يعقوب، يحملون في أيديهم المشاعل، أريد حرق داره وهو بداخلها، أريد أن أرى النار تأكل جسده كما أكلت قلبي.

ومن يأبى الذهاب أو يرفض؛ سأجعل أيامه القادمة في القرية جحيمًا، بل أصعب من الجحيم.. فسأدفنه حيًا.. كان العمدة يستمع لشاكر وهو في حالة دهشة؛ فما يطلبه شاكر أمرًا مستحيل التنفيذ؛ فيعقوب لا يكرهه أحد أبدا، بل إن كل أهل القرية

يحبونه، وكيف!! وهو من يساعدهم ويعالجهم.

كيف سيطلب هذا منهم!! لكنه في ذاك الوقت لم يستطع أن يرفض ما أمره شاكر به، فهو في حالة ثورة وهيستريا مرعبة، حتى إنه ظن أنه لو تناقش حتى معه سيقتله... قال العمدة أمرك يا باشا أمرك، وذهب سريعا إلى دارة، وأرسل أحد رجاله يستدعي بعضًا من أهل القرية؛ ليخبرهم فيقومون هم بإخبار باقي أهل القرية.

وعندما حضر بعض رجال القرية، وقال لهم العمدة ما أمرهم به شاكر، نهض إدريس معترضًا مذهولًا وهو يقول يعقوب!!!! كيف!! وهو رجل عجوز لم يؤذ أحدًا من قبل، بل إنه يساعد الجميع ويعالجهم ويحل مشاكلهم.

نهض طوخي وقال: مستحيل أن نفعل هذا الأمر، إن يعقوب رجل صالح يحبه الكل ويساعد الجميع.. كان اعتراض إدريس وطوخي كفيلًا بتشجيع باقي الرجال، لكن العمدة تدخل وقال: يبدو أنني نسيت أن أكمل لكم ما قاله شاكر.

فقد قال: من يأبى أو يرفض سيجعل أيامه جحيمًا.. ومن يقبل ينل الرضا، ثم أضاف العمدة، ومن يدري ربما يعيد له أرضه ويعطيه أموالًا..

جلس طوخي وإدريس ونظرا إلى بعضهما ومعهم باقي رجال القرية، ابتسم العمدة وشعر أنه استطاع التأثير عليهم وأن رصاصته أصابت الهدف..

- قال طوخي ومن يضمن هذا، إن شاكر باشا لا يستطيع أحد

إجباره على شيء، ثم وإن.. قبل أن يكمل قاطعه العمدة قائلًا:

- تعالي أنت وإدريس، نهض ودخل بهما إلى غرفة بمفردهم.

- قال لهما أعدكما أنتما فقط الآن إن استطعتما أن تحشدا أهل القرية ليلا؛ لحرق يعقوب وداره أن تحصلا على كل ما تريدان...

- نظر طوخي إلى إدريس، ثم قال للعمدة: اقسم بحياة ولدك جلال يا عمدة.. قال العمدة أقسم لكما بحياة ولدي جلال سأجعل شاكر يعطيكما ما تطلبان، لكن يجب أن تنفذا ما سأقوله لكما حرفيًا.. يجب أن نقنع أهل القرية بأن يعقوب شرًا عليهم، وأنه السبب فيما كان يفعله شاكر بهم، كيف لا أدري، لكن يجب أن يشعروا بذلك.

- ضحك إدريس، وقال: لا عليك، سنفعل هذا، وبعد أن ننهي الأمر خذنا معك إلى قصر الباشا..

- شرد طوخي بذهنه؛ فهو لا يريد من الباشا شيئًا فهو لا يزال يحتفظ بالكثير من الأموال جراء بيع الصندوق الذهبي، لكنه لم يستطع إخراج تلك الأموال والتصرف بها حتى الآن، فبعد أن بدأ بشراء الأراضي والمنازل عاد شاكر لبطشه واستولى عليها مما جعله يخشى إخراج تلك الأموال؛ كي لا يستحوذ شاكر عليها.. لكنه لن يقول ذلك لكنه سيطلب من شاكر إرجاع باقي أرضه، حتى لا يعلم أحد بأمر أمواله.

- أيقظه إدريس من شروده بعد أن وضع يده على كتفه، وقال: هيا بنا فلدينا الكثير من العمل قبل المغرب، ثم خرجوا ليجلسوا مع باقي الرجال، تنهد طوخي وقال: يا له من ماكر؛ نظر له العمدة

بذهولٍ ثم أكمل طوخي: لقد خدعنا ذلك العجوز كل هذا الوقت؛ تنفس العمدة الصعداء؛ فقد ظن أن طوخي سيوشي بما اتفقوا عليه.

نظر طوخي إلى إدريس، وقال:

- إننا نعلم قدرات يعقوب الخارقة، لكنه كان يخدعنا، تركنا في يد شاكر يفعل بنا ما يشاء، يمارس طغيانه علينا ويسلب أموالنا، ونحن نعتقد أنه يفعل هذا من تلقاء نفسه، لكن الآن علمنا الحقيقة التي ظهرت مؤخرًا، فقد كان يذهب له هذا العجوز ليلا يحتمي في ظلام الليل ليبث سمومه لشاكر، وينصحه أن يزيد من بطشه وإلا سنتمرد عليه، بل إنه أيضا كان على الجانب الآخر يساعدنا ليبدو هو الطيب المسالم وشاكر شيطان عظيم..

- التقط إدريس أطراف الحديث بعد أن فهم ما يرمي إليه طوخي، وقال: بالفعل يا طوخي تذكرت الآن ما فعله مع زوجتي الثانية، ورفضه مساعدتها عندما طلبت منه أمرًا ما، وبعدها ذهبت إلى شاكر الذي قال لي حينها: إن أردت أي شيء أطلبه ولك مني تحقيقه، ألا تذكرون تلك الفترة التي كان شاكر بها مسالمًا يساعد المحتاجين وينفق الكثير من الأموال علينا.. كان قد تخلص من لعنة يعقوب، ألا تتذكرون؟!! لقد خدعنا كل هذه السنوات يا رجال..

- لو لم يكن العمدة هو من اتفق معهم على ذلك الأمر لصدقهم من صدق حديثهم وقوة إقناعهم...

ثم نهضوا جميعًا بعد أن اقتنع كل الموجودين، لكن قبل انصرافهم

أوقفهم إدريس، وقال لهم يا رجال:

- يجب على كل واحد منكم أن يجمع مجموعة من أهل القرية؛ لقص لهم ما اتفقنا عليه، تكلم بعده العمدة وقال:

- سنذهب جميعًا إلى دار يعقوب في جماعات بعد المغرب.. يجب أن نتخلص منه، وماهي إلا ساعات حتى أصبح الأمر حديث أهل القرية كلها، الكثير لم يصدق الأمر ومن لم يقتنع كان يتم إرهابه بشاكر وما سيفعله، فيشعر أنه سيكون الوحيد المعترض فيقبل مجبرًا على ذلك.

لم يكن هناك إلا واحدة فقط كانت مستاءة للغاية وتبكي على ما آلت إليه الأمور، لكنها لم يكن في يدها شيء، حاولت أن تذهب إليه لتحذره مما سيحدث له، لكن زوجها منعها بل وأوسعها ضربًا، كانت تلك المرأة هي صفاء زوجة إدريس.. وبعد أذان المغرب انطلقت صيحات داخل القرية، واجتمعوا على قلب رجل واحد أو لنقل على قلب شيطان واحد.

كانت كل ديار القرية خالية إلا من النساء والأطفال، أما الرجال فكانوا يمشون في جماعات يحملون المشاعل النارية، يقود كل مجموعة منهم رجل ممن كانوا في جلسة العمدة، أما شاكر فكان يقف بسيارته بعيدًا عن دار يعقوب؛ فهو لا يزال يخشاه للغاية.. كانت أصوات أقدامهم تهز القرية.

كانوا يتعمدون المرور من أمام سيارة شاكر، ويتسابقون إلى المقدمة كي يراهم شاكر، فهم بسطاء يحلمون بنيل رضا صاحب النفوذ والمال والقوة..

وعندما وصلوا أمام دار يعقوب ـ الذي لم يغير مجلسه أو جلسته المعتادة، يمسك سبحته في يده ـ رآهم أمامه يطوقون المنزل ويحاصرونه من كل صوب، لم ينهض ولم تظهر على وجهه علامات الدهشة أو التعجب، كان يتمتم داخله بكلمات لا يسمعها أحد جلسته كانت القرفصاء، هادئ مثلما تعودوا منه، نظراته ثابتة، عيناه زائغتان تذهب كثيرا نحو طوخي، ثم إدريس، والعمدة بالطبع...

لم يجرؤ أحد على البدء بما قرروا فعله، كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض، تأبى أيديهم أن تلقي الشعل عليه وعلى الدار، ظلوا هكذا أكثر من خمس دقائق يغلفهم الصمت المطبق إلا من أجيج نيران المشاعل كأنهم أصنام يحملنها، شعروا بالخوف والرهبة، قرية بكاملها ضد رجل مسن عجوز أعزل ولا يجرؤن على إيذائه، لم ينهض يعقوب أو يتوسل لأحد أو حتى يحاول الهرب..

كان لابد من أحدهم أن يحرك بِرْكة الصمت هذه بإلقاء حجر بها، وكان هذا الرجل هو العمدة الذي صاح في الرجال، هيا نتخلص من هذا الشر، وألقى بشعلته داخل الدار أمام مقعد يعقوب مباشرة ـ الذي لم يتحرك ـ ثم أتبعه طوخي وإدريس وباقي الرجال، لم يستغرق الأمر سوى دقيقة؛ واشتعلت الدار سريعًا وبداخلها يعقوب تأكله النيران ولا يتحرك، كان هناك من يلقي شعلته وهو يبكي في صمت، ولا يجرؤ على الامتناع ازدادت النيران اشتعالا، وصعد لهيبها إلى عنان السماء وسُمع أجيجها عاليًا.

ظلت النيران مشتعلة أكثر من ساعتين، لم تخمد أو تهدأ أبدا، بل كان يزداد أجيجها أكثر فأكثر ويزيد معه الخوف بقلوب أهل القرية، فالدار صغيرة واشتعال النيران بها يجب ألا يُحدث كل هذا الاشتعال، ثم دوى انفجار في الدار، انفجار مدوي كأنه قنبلة أُلقيت من السماء، وخمدت النيران فجأة مرة واحدة، دون تدرج تزامنا مع صوت الانفجار، وابتلعت الأرض أنقاض الدار وتركت هوة سحيقة تحتها، على شكل فوهة بئر لكنها كبيرة للغاية.

كان الجميع يتابع المشهد في ذهول وتعجب ودهشة... فما هذا الذي حدث؟! أين الدار؟! اقتربوا من الهوه، نظروا داخلها، كانت كالبئر تمامًا، وكأنها في هذا المكان منذ سنين.. سقط ثلاثة رجال فاقدي الوعي تمامًا مما رأوا، لم يلتفت أحد لهم، فكان كل ما يشغلهم هو كيف تحوّلت الدار المشتعلة في دقيقة إلى بئر بهذا العمق.. بئر بلا ماء.. وأين الحطام؟!

أليس من المفترض أن يكون أسفل البئر حطام الدار.. قال العمدة بهدوء وتوجس: هيا عودوا إلى دياركم انتهي الأمر، لم يسمعه أحد؛ فقد كان الكل محدق ببصره داخل البئر، صاح فيهم العمدة: هيا اذهبوا إلى دياركم ألم تسمعوا، بدأوا في التحرك ببطء كانوا يضربون كفا بكف.. لا يصدقون ما رأوا بأعينهم..

وكان شاكر يراقب من بعيد، ولا يعرف ماذا يحدث، ولا أين اختفت النيران؟ ولماذا يقفون هناك حول الأنقاض ينظرون إلى الأسفل؟ لم يجرؤ على النزول والذهاب لاستكشاف الأمر..

- ذهب إليه العمدة، وقال له: لن تصدق سيدي ما حدث.. قال شاكر بلهفة ماذا حدث؟ تكلم بسرعة.

- قصّ له العمدة ما حدث بالكامل، لم يبد شاكر دهشته مما سمعه من العمدة، فقط ركب سيارته وقال: المهم أنني انتقمت منه، أشعر الآن براحة شديدة.. وقبل أن ينطلق السائق أوقفه العمدة قائلًا:

- سيدي أريد أن آتي لك غدًا، ومعي بعض من الرجال لنكافئهم على مساعدتهم لنا.

- قال شاكر بعدم اهتمام: ليس الآن، اتركني عدة أيام ولا تأت حتى أرسل لك، وانطلق السائق مسرعًا.

وفي اليوم التالي بعد أن عاد رجال القرية إلى ديارهم؛ قصوا ما حدث لزوجاتهم اللاتي تثرثرن في جلساتهن عما حدث، ونسج القصص الخرافية عن يعقوب وبئره التي ظهرت.

مرت الأيام وأصبح الجميع يخشون من المرور من أمام البئر، أو حتى الأماكن القريبة منها.. ولم يف شاكر بوعده لأحد، بل أصبح وحش كاسر، وازداد ضراوةً وقسوةً مع أهالي القرية.

تركت صفاء إدريس، وأخذت ولدها محمد وهربت من البلدة.. وذهب طوخي وزوجه وابنته فاتن إلى قرية مجاورة، ومعه أمواله التي كان يخفيها، أما العمدة فظل كما هو، هو وأبناؤه إلا ابنه جلال الذي أرسله إلى القاهرة؛ ليدخل المدرسة بها؛ فقد كان يعده ليكون العمدة القادم بعد أن يكبر.

ساءت أحوال القرية أكثر وأكثر، انتشر المرض والجوع والفقر، واشترى أو بمعني أدق استولى شاكر على كل أراضي القرية،

ووضع على حدودها أسوارًا تعلوها لافتة مكتوب عليها قرية شاكر؛ فبالفعل كل أراضيها تحت سيطرته وملكه، حتى ثار الجبل مرة أخرى بعد زلزال عنيف جعل الكثير من الصخور العملاقة تتدحرج وتهبط؛ لتدك كل بيوت القرية ليلًا وأهلها نيام، كانت صخور ضخمةً، تعادل الصخرة الواحدة منها حجم عشرة بيوت من بيوت القرية؛ فدكت القرية تمامًا حتى قصر شاكر لم يفلت من الكارثة... فماتوا تحت أنقاضها جميعًا.

***

كيف كان يجلس على حافة البئر دون أن يسقط فيها يا حسام؟! قالتها ديانا برعب، فلم يجبها؛ لأنه كان ينظر إلى قاع البئر في ذهول، ثم أكملت قائلة:

- أريد أن أقول لك شيئا، لكن لا تتهمني بالجنون؛ نظر لها ولا يزال على وجهه علامات الدهشة والتعجب، وقال:

- ماذا تريدين قوله؟! قالت بارتباك: لم أكن متأكدة من الأمر، لكن عندما اقتربنا منه وتبينت ملامحه تأكدت أنه هو.. جدي... نعم لم أره ولو مرة واحدة في حياتي؛ لأنه تُوفي وأبي لم يتخط الخامسة من عمره، لكن هناك صورة وحيدة له كان أبي يحتفظ بها..

- سخر حسام مما تقول: وقال لها: يبدو أن الأجواء قد أثرت على عقلك الباطن، ثم أردف: أتذكر هذه الطريق جيدا، فقد مررنا هنا ونحن في طريقنا للجبل، ولم تكن هذه البئر الضخمة موجودة بها، لم أرها، فكيف ظهرت، ثم ظهر هذا الوميض مرة أخرى من

أسفل البئر.

اقترب الاثنان من حافتها، كان الوميض فقط ما يظهر من أسفل، ثم تبعه نداء واستغاثه، كان صوته واهنًا ضعيفًا: أنقذوني أرجوكم النجدة، ارتجف حسام وديانا عند سماعهما الصوت وتأكدا هنا أن الأمر حقيقة، ولم يكن وهمًا، قالت ديانا بإلحاح:

- هيا بنا ننقذه إنه جدي لن أتركه.

- أسكتها حسام بحسم: أجننت؟!!، ماذا تريدين أن نفعل، أنهبط في هذه البئر المظلمة؛ لننقذ شخصًا لا نعرفه، ومن يدري ربما كان فخًا.

كانت ديانا تحت تأثير شعورها بالقرب من هذا العجوز؛ فقد كانت تشعر بالفعل أنه جدها، فكيف لا تنقذه حتى وإن كان الأمر يحفه الخطر والرعب...

- قالت بحزم إذن لا تهبط أنت سأهبط أنا، وعليك أن تنتظرني هنا، وبعصبيه أزاحته من أمامها، لكنها توقفت فجأة لتبحث عن وسيلة للهبوط، نظرت للجهة المقابلة من البئر الضخمة فلفت نظرها شيء أسفل الظهر: فالحافة هناك مباشرةً؛ توجهت إلى الجهة المقابلة، وذهب حسام خلفها، وعندما وصلت تبينت أن هناك سُلمًا حديديًا يؤدي إلى قاع البئر وضعت قدمها على الحافة والأخرى على أولى درجات السُلم.

- صاح بها حسام انتظري أيتها المجنونة فلن أتركك تهبطين بمفردك في هذه البئر؛ وأمسك بأول السلم وهبطا معًا.. وفي طريقهما إلى الأسفل كان الصوت يطلب المساعدة وينتحب

ويبكي، قائلا: ساعدوني..

كان الصوت يدب الرعب والرهبة داخلهما، لكن إصرار ديانا جعلها لا تفكر في شيء إلا الوصول لجدها كما تظن، رغم أنه ميت منذ زمن، لكن عقلها كان متوقفًا عن العمل.. كان الضوء يبتعد كلما هبطا؛ لأن البئر عميقة للغاية... ظلا يهبطان حتى وصلت ديانا أولا إلى القاع، ووقفت بقدمها على الأرض.. واختفى الوميض، لحق بها حسام وقال: أنا لا أرى شيئا وأمسكها بقوة.

ثم دوّى صوت ارتطام قوي؛ فنظر حسام إلى أعلى البئر لم يرَ شيئا، ولم يجد السلم وانبعث ضوء أحمر خافت يملأ المكان، واستطاعا به رؤية ما هم بداخله، ممر الطويل، وغرف ذات باب تعلوه نافذة صغيرة، الرعب والصدمة جعلتهما لا ينطقان، فقط تشبثت ديانا بحسام أكثر والتصقت به.

ثم قالت بصوت أقرب للبكاء: أين هو؟ أين ذهب؟ ما هذا المكان؟ قال حسام وقد فقد تركيزه لا أعلم شيئا، ثم بدأت أبواب الغرف تُفتح وتًصدر صوت صرير مرعب، وتعود لتُغلق مرة أخرى، ثلاث مرات تفتح كل الأبواب الخاصة بالغرف، ثم تغلق مرة أخرى، وفي المرة الرابعة عادت تُغلق إلا غرفتان، لم تغلق أبوابهما، وانطفأ الضوء الأحمر من الممر كله إلا من الغرفتين.

وبدأت تنبعث الأصوات من كل صوب، صوت حشرجة غريب، وفجأة خرج من الغرفتين آلاف من العناكب الغريبة، سوداء تحمل رؤوس تشبه البشر، خرجوا في سرعة وتنظيم تجاه حسام وديانا اللذين تسمرا في مكانهما؛ صرخت ديانا بكل قوة، تراجعت هي وحسام، الذي نظر فوقه فلم يجد أو يرى شيئا، كانت العناكب

تقترب في سرعة وبشكلها المرعب، وصوت أقدامها مخيف.

***

سأسافر غدًا إلى مصر قالتها ليليان لصديقتها صوفيا المصرية مثلها، التي تدرس معها في جامعه أكسفورد بلندن، قالت صوفيا وهي تتناول قدح الشاي:

- لماذا؟ ونحن لم نذهب قط إلى مصر رغم حملنا لجنسيتها بجانب الجنسية الإنجليزية.

- قالت ليليان: أمس كنت أعبث بأوراق والدتي فريدة رحمها الله، التي كانت تعتز بعروبتنا وأصولنا، وهي من أصرت أن تعلمني اللغة العربية رغم إقامتنا الدائمة هنا، كانت هناك أوراق كثيرة قديمة للغاية مهترئة، لكن أهم ما كان بها هي صور كثيرة لجدتي ووالدتها، وكتاب صغير كان جدي يدون به مذكراته، كم كانت جدتي جميلة للغاية.

كانت أمي تقول لي أن جدك بعد وفاتها لم يستطع أن يتزوج امرأة أخرى، بل لم يستطع أن يقيم في مصر مرة أخرى، ماتت في سن صغيرة، حتى أمي لا تتذكر وجهها جيدًا إلا من بعض الصور التي كانت بحوزة جدي..

- لا أعلم هل قرأت أمي مذكرات جدي أم لا، لكني قرأتها كلها، نعم كان هناك الكثير من الأوراق مقطوعة في بداية المذكرات، وكانت هناك بعض الأوراق سليمة علمت منها أن أمي لديها الكثير والكثير من الأملاك في بلد صغير بمصر... قاطعتها صوفيا قائلة بإعجاب إذن ستصبحين من الأثرياء.

- كم ستمكثين في مصر.. قالت ليليان لا أدري، ليس كثيرًا فأنت تعلمين أني أمر بضائقة مالية منذ وفاة أمي، فلا أملك الآن نقودًا إضافية؛ لذا وجدت في هذه المذكرات الفرصة، ولن أخسر شيئًا إن فعلت، ومن يدري ربما أعود من مصر محملة بالكثير من الأموال.

نهضت صوفيا وهي تحاسب النادل على قدح الشاي الخاص بها وقالت: أتمنى، لكن أرجو حينها ألا تنسيني وضحكت، وألقت عليها السلام وتركتها وانصرفت، أخرجت ليليان هاتفها وأدارت محرك البحث؛ لتبحث عن القرية التي كتب عنها جدها.. قرية جدتها قرية تحمل اسم إتليدم......

على السادة الركاب ربط أحزمة الأمان للهبوط في مطار القاهرة الدولي، ربطت ليليان حزام الأمان وهي تنظر إلى النافذة؛ لترى الأهرامات عن قرب، يا لها من ساحرة فرغم رؤيتها كثيرًا على شاشات التلفاز إلا أن رؤيتها على الطبيعية من أعلى لها سحر خاص.

وبعد إنهاء إجراءات الوصول استقلت سيارة أجرة وذهبت إلى فندق يقع وسط القاهرة، يطل على النيل الساحر مباشرةً.. قررت أن تخلد للنوم اليوم، ولكن قبل أن تنام ـ وكعادتها منذ أن كانت صغيره، ومثلما علمتها والدتها ـ أخرجت ورقة صغيرة؛ ودوّنت عليها ما ستفعله غدًا:

أولًا: ستبحث عن موقع القرية عن طريق الخرائط على هاتفها المحمول.

ثانيًا : استئجار سيارة للذهاب هناك.

ثم خلدت إلى فراشها وغطت في نوم عميق.

***

حاول حسام إبعاد العناكب المخيفة، لكن عددها المهول حال دون ذلك، حتى بدأت العناكب تصعد على أرجلهم وتغطيها تمامًا، ترك حسام ديانا من أجل إزاحة العناكب عن جسده، لكنه لم يُفلح حتى احتلت العناكب جسده بالكامل، نظر إلى ديانا التي كانت تصرخ وتبكي في آن واحد، لم يرَ أيَّ جزءٍ من جسدها، الذي غطته العناكب كاملًا عدا رأسها، ثم وجد نفسه يمشي رغمًا عنه، كانت تلك العناكب هي ما تتحكم بجسده بعد احتلاله بالكامل، جميعها يحمل رؤوسًا بشرية لكن بوجه واحد فقط، اقتادته بعد أن شُل جسده بالكامل؛ أعجزته عن الحركة، بخطوات بطيئة اقتادته نحو غرفة من الغرفتين حتى وصل إلى بابها المفتوح، ولج بداخلها واقتيدت ديانا إلى الغرفة الأخرى، وبعدما دخلا أُغلق باب كل غرفة على حدة، بعدها انسحبت العناكب في شكل منظم مثير عن أجسادهما.. واختفت تمامًا.

صرخ حسام ينادي على ديانا من نافذة غرفته المحبوس داخلها؛ لكنها لم تجب.. عاد إلى منتصف الغرفة يتفقد أرجاءها.

لم يكن هناك إلا الجدران الصخرية، ثم فجأة بدأ أحد أركان الغرفة في الاهتزاز، وخرج منها طفل صغير، ثم تلاه الآخر فالآخر كأنهم يولدون من الجدار، لكنه لم يرَ وجوه مَنْ كانوا يلقون من بطن الجدار بظهورهم، كان العدد كبير للغاية يتعدى العشرين

طفلًا، ثم توقف الجدار عن قذف الأطفال اللذين اصطفوا والتفوا جميعهم مرة واحدة حول حسام، وكاد قلب حسام أن يتوقف مما رآه.

فقد كانت وجوههم بلا أعين ورؤوسهم بلا شعر، وأفواههم بلا شفاة تخفي أسنانهم، التي كانت عبارة عن أنياب فقط يضحكون فتظهر أنيابهم أكثر وأكثر.

هنا سقط حسام فاقدًا الوعي.. أما في الغرفة الأخرى كانت ديانا تبكي في هلع بعد أن تركت تلك العناكب جسدها واختفت فجأة، جلست على أرض الغرفة ووضعت وجهها بين كفيها حتى أغرقت دموعها كفي يديها، ثم سمعت حسيسًا غير مفهوم داخل الغرفة؛ لم تجرؤ على رفع رأسها، قالت بهستيريا: كفى كفى.. إلا أن الحسيس ازداد، بل أصبح عاليًا ومفهومًا ما يقوله، فقط كان اسمها ما يُرتفع الصوت به، رفعت وجهها ببطء، ونظرت إلى جهة الصوت، وارتسمت علامات الذعر على وجهها؛ فقد كانت الأفاعي تحيط بها من كل مكان، ويملؤون الغرفة كلها، لكنها ليست أفاعي عادية، لم تكن ألسنتها مثل الأفاعي العادية، لا بل كانت مثل ألسنة البشر، كذلك أعينها بشرية.

كانت تقف على منتصف جسدهم تحيطها، لم تصرخ ولم تنطق، جحظت عيناها وتسمرت مكانها.

***

استيقظ أمجد في السابعة صباحًا، وذهب إلى خيمة حسام الصغيرة، وقام بالنداء عليه حتى يستيقظ، بالطبع لا يستطيع أن

يدخل له الخيمة لوجود ديانا معه، لم يجبه حسام فظل أمجد يصيح ويقول له:

- هيا انهض أيها الكسول أنت وزوجك إنها مغامرة ولا وقت للنوم.. ظل هكذا حتى لمح بطرف عينيه جميلته المشاغبة سادن، كانت تقف أسفل الجبل مباشرةً تقوم بعمل رياضتها الصباحية، ركض باتجاهها مباشرة، لمحته وهي تركض في مكانها، لكن لم تظهر له هذا، وقف أمجد جانبها وفعل مثلها تماما وهو يقول: صباح الخير سادن كيف حالك.

- قالت: بخير، وأنت كيف حالك.. قالتها وهي لا زالت تقوم ببعض الحركات والتمارين. قال: الحمد لله إن الرحلة رائعة، أنا مستمتع للغاية..

- قالت له وهي تجفف وجهها بالمنشفة بعد انتهائها: المتعة ستبدأ اليوم عندما نتسلق الجبل فهو من ضمن برنامجي الذي وضعته للرحلة، شحب وجه أمجد وقال بتوجس: ماذا؟! نتسلق ماذا؟!

- قالت الجبل.. ما بك لماذا تغيرت ملامح وجهك... قال: لا لا أنا أحب التسلق منذ نعومة أظافري، ثم أكمل داخل عقله تبا أنا أموت هلعًا من المرتفعات، كنت أعلم أنها مجنونة، أقسم على ذلك، لكني وقعت في عشقها ولا مفر.

- أخرجته سادن من حديث النفس هذا صائحة: أمجد إلى أين وصلت، قال: ماذا قلتِ؟!

- إنك شردت فجأة دون أن تنطق، يبدو أنك تفكر كيف سيكون منظر هذه القرية المنكوبة من أعلى الجبل.. نظر أمجد إلى أعلى

فوجد قمة الجبل الشاهق.

كادت دمعة أن تفر من عينيه رعبًا، لكنه ضحك أمامها وبكى داخله، ثم قال: نعم سيكون مشهدا رائعًا؛ لذا سآخذ منظاري معي كي أرى المشهد من قرب.

- تركت سادن المنشفة واقتربت منه وقالت بلهفة: هل معك منظار من الذين يظهرون في البرامج الوثائقية، هذا المنظار الكبير!

- قال بغرور وثقة، وقد شعر أنه نال إعجابها أخيرًا: نعم، فأنا لا أذهب إلى أي مكان دونه وضحكا سويا.

- ثم اقترب منها وقال: ما رأيك أن نجلس لتناول الإفطار سويًا الآن؟

- قالت له وهي تغمز بعينها له وقد خطر على بالها فكرة مجنونة:

- ما رأيك أنت أن نتناول الإفطار بالأعلى، لن أقول لك أعلى القمة، لكن انظر هناك على بعد عشر أو خمسة عشر مترًا أعلى صخرة بارزة من الجبل، ما رأيك أن تأتي بمنظارك حتى أعد أنا الإفطار قبل أن يستيقظ أحد.

- كانت تريد أن ترعبه، إنها تتلذذ بهذا، لكن قلبها قد بدأ يدق له؛ لذلك لم تكن تريد أن يراه أحد وهو خائف هكذا..

- قال لها دون تردد وكأنها ساحرة استطاعت أن تجعله ينسى هلعه: حسنًا سأذهب في الحال لأحضر المنظار.. قالت له: أحضره وانتظرني هنا سأذهب لتحضير الإفطار وحبال التسلق..

- عاد أمجد إلى خيمته، فتح حقيبته بهدوء وتحرك ببطء كي لا يوقظ أحدًا، ويتسبب في إفساد هذه اللحظات التي ينتظرها بلهفة مع سادن. أخذ المنظار وتأكد أنه يعمل بكفاءة وذهب ينتظرها....

كادت سادن أن تموت ضحكًا وهي ترى أمجد يتشبث بها وهما يتسلقان، فلم يكن يفصلهما عن الأرض إلا أمتار قليلة، أما أمجد فقد كان يرتعد، فلم يستطع أن يخفي هلعه ورعبه . إن فوبيا الأماكن المرتفعة مميتة لمن يعانون منها . كانت سادن تحمل حقيبة على ظهرها بها الطعام، وتمسك بيدها الأخرى يد أمجد المرتعشة.

وما إن وصلا للصخرة المنشودة حتى ألقى أمجد المنظار؛ وارتمى على الصخرة وهو يلهث ويتنفس بصعوبة، أما سادن فقد كانت تموت ضحكًا عليه، ثم قالت: كنت أعلم أنك تخشى الأماكن المرتفعة، لكن لم أتخيل أن يكون الأمر بهذا الشكل، أشعر أن قلبك كاد أن يتوقف عشر مرات..

- قال وهو يحاول أن يهدئ نفسه: ومن قال لكِ أنه لم يتوقف بالفعل ولمسه يدك هي ما كانت تعيده للعمل.. راقها ما قاله.

- أمسكت حقيبتها وأخرجت الإفطار وقالت له هيا فأنا أتضور جوعًا.

- ناولته شطيرة جبن ونظرت تجاه القرية، وقالت: يا له من مشهد رائع، التقم أمجد قطعة من الشطيرة، وهو يقول سيكون أروع من قرب عندما نرى بالمنظار.

- قالت: ناولني إياه سريعًا، ناولها أمجد المنظار بيده الأخرى، أمسكته سادن وتجولت ببصرها من خلال المنظار يمنةً ويسرةً، ثم فجأة توقفت عند بقعة ما، وقالت: ما هذا؟!

- قال أمجد بعد أن فرغ من شطيرته: هل معك شطيرة أخرى؟

- لم تلفت إليه ثم أردفت قائلة: انظر إلى هذه البئر الغريبة، إن حوافها تلمع للغاية كأنها ذهب، مهلا مهلا لم أرَ أمس في طريقنا إلى هنا أي آبار، من أين ظهرت؟! أكاد أقسم أنني لم أرها بالأمس.

- قال أمجد باهتمام: أعطيني المنظار أرى ما تتحدثين عنه.

- أشارت له إلى مكانها وأعطته المنظار.

- قال لها: نعم إنها بئر محيطها كبير، قالت هل رأيتها أمس ونحن في طريقنا إلى هنا. ابتسم أمجد في خجل وقال: لا أتذكر فقد كنت أراقبك، وأنظر إليكِ فلم أرَ شيئًا آخر، ثم أردف: لكن أي ذهب تتحدثين عنه، إنني أرى أن حوافها عادية للغاية إلا من....

- مهلا مهلا هناك نقوش فرعونية على حوافها، انتظري سأقرب عدسة المنظار أكثر ها هي نعم إنها نقوش فرعونية بالفعل تظهر أمامي واضحة للغاية..

- قالت له: لا، إن حوافها ذهبية تلمع تحت أشعة الشمس.

- قال لها : لا أرى هذا.

- قالت بعصبية: لا يهم ما تراه أنت فأنا رأيتها..

- أعطني المنظار مرة أخرى، وللمرة الثانية رأت سادن البئر لكن بحوافها الذهبية.

- لم يجادلها أمجد الذي قال: حسنا ليكن، هل تعلمين أن عيناكِ رائعتين؟

- نظرت له سادن باحتقان، وقالت: هل هذا الوقت المناسب لما تقوله؟

- ألا يلفت نظرك أن هناك أمر غريب، وأننا بصدد اكتشاف شيء مذهل، هناك بئر حوافها ذهبية أتدرك هذا!! هل تتخيل ما سوف نجده داخلها هناك؟

- تنحنح أمجد بعد أن أحرجته سادن، وقال أنا لم أر هذا الذهب، لكن على أي حال ماذا تريدين أن أفعل؟

- اقتربت منه في حزم، وقالت بجدية لا تتناسب مع رقتها: إياك عندما نهبط أن تتفوه بكلمة عما رأيناه حتى لصديقك وزوجه، حذار يا أمجد.. ثم رأت أن هناك ما تستطيع إقناعه به بطريقة أفضل، فقالت: اتعدني يا حبيبي....

- بارتباك نظر لها أمجد ماذا..؟! حبيبك!! أنا...

- قالت: طبعا المهم أتعدني؟

- قال: أعدك. قالت: حسنا، اتفقنا.

- ما رأيك أن نذهب سويًا إلى هناك ليلا نكتشف الأمر، لكن بعد أن يكون الجميع قد خلد إلى النوم؟

- قال: أنا وأنت فقط!

- قالت بدلال: نعم.

- قال لها موافق بالطبع. لملمت أشياءها، وقالت: إذن الليلة بعد أن يحل الظلام.

- أعلم أني لن أستطيع الانتظار لمنتصف الليل؛ لذا سنجعلها بعد أن تغيب الشمس مباشرةً لأجل ألا يرانا أحد.

- هيا نهبط، ابتلع أمجد ريقه بصعوبة وقال: هذا ما كنت أخشاه الهبوط من كل هذه المسافة ورؤية الأرض بعيدة بالأسفل.

هبطت سادن وورائها أمجد بصعوبة بالغة، ثم ذهب كلا منهما إلى خيمته، وحاول أمجد ألا يقترب من خيمة حسام؛ حتى لا يقع بلسانه ويقول له ما رآه. كان مجهدًا للغاية من تسلق الجبل والتدريبات الصباحية مع سادن فنام سريعًا.

استيقظ على ضوضاء فقد كان أعضاء الرحلة يسمعون أغاني، ويلهون ويلعبون، خرج من الخيمة فوجد سادن تجلس مع هالة، نظرت له لكنها لم تأتِ إليه.

نظر إلى خيمة حسام ومشى تجاه سادن، التي تركت هالة وذهبت إليه، قالت له: لقد أعددت كل شيء، وستتولى هالة برنامج الرحلة الليلي حتى نذهب ونعود. لا تقلق لم أخبرها بشيء عن البئر قلت لها إنك تريد أن تتحدث معي بمفردنا، هيا انتظرني في آخر المعسكر، وما هي إلا دقائق حتى عادت إليه، وذهبا سويا تجاه البئر.

ظلا يمشيان داخل القرية المنكوبة، قالت سادن: كنت اعتقد أن البئر قريبة ولم أكن أتخيل كل هذه المسافة.

- قال أمجد أتدرين يا سادن فقد بذلت مجهودًا اليوم يعادل ما بذلته خلال عام.

- نظرت سادن خلفها، وقالت: لقد ابتعدنا كثيرًا فلم أعد أرى المعسكر، أمسك أمجد يدها قائلًا: انظري ها هي البئر، بدت البئر لها لامعة تحت ضوء القمر، ذهبية اللون؛ صاحت بفرحة أرأيت الذهب... ها هو.

- نظر لها أمجد بتعجب وقال: أي ذهب هذا.. إنها بئر مخيفة للغاية.

- اقتربت سادن من حافة البئر، وظلت تحسس حافتها بيدها، ثم نظرت إلى أسفل البئر وشهقت... صاحت: تبا كنز.. هناك الكثير من القطع الذهبية أسفل... انظر.

- اقترب أمجد بحرص ونظر أسفل البئر، ثم قال: لا أرى سوى بعضًا من الحجارة السوداء، أنا لا أرى شيئا، سنهبط قالتها سادن بحسم.

- قال لها أمجد: نهبط!!! نهبط إلى أين؟ وكيف؟ ولماذا؟ هل تريدين الانتحار؟

- قالت ألن تهبط معي! هل ستتركني بمفردي! أنت خائف صح؟

- بتردد قال أمجد: لا، لست خائفًا، لكني لا أجد مبررًا للأمر.

- قالت له: صدقني هناك الكثير من الذهب بالأسفل، أنا أراه، هيا هيا لا تخف، ثم أشارت إلى السلم الحديدي.. إن الأمر ليس بصعوبة تسلق الجبل. ونزل السلم ووراءها.

وبدأ الهبوط إلى أسفل البئر.. كانت كل فترة تنظر إلى أسفل فتشعر أن الذهب يبتعد، ظلت هكذا حتى وصلت إلى قاع البئر ووراءها أمجد، وبدأ الضوء الأحمر في الانبعاث مرة أخرى.

ودوّى صوت الارتطام مرة أخرى، وأُغلقت فوقهما البئر تمامًا في ظل ذهول سادن، التي كانت تجول بنظرها داخل الممر والغرف ذات النوافذ أعلى أبوابها.

وبدأت العناكب في الظهور واقتيادهما إلى غرفهما في ظل صراخ سادن الهيستري، وصدمة أمجد الذي لم ينطق، أُغلق باب غرفة سادن، واختفت العناكب؛ فركضت سادن تجاه الباب تصرخ وتضربه بقوة، وهي تصيح أخرجوني من هنا.

حتى سمعت خلفها صوت حِلي تتدحرج على الأرض؛ نظرت خلفها كان هناك الكثير من الأسوار الذهبية اللامعة؛ ابتسمت سادن ودموعها لم تجف بعد، وبدأت تجمع الأساور الذهبية وترتديها حول معصميها، ثم بدأت في تجميع السلاسل وارتدتها أيضا، ثم صاحت أمجد أمجد هل تسمعني، هل تصدقني الآن وجدت الذهب، ولكنها بدأت تشعر باعتصار الأساور لمعصميها فنظرت إلى يديها؛ فوجدت الأساور الذهبية وقد تحولت إلى حديد صدئ أسود تماما، ويعتصر يدها مما جعلها تصرخ بقوة، أما السلاسل فقد أصبح يتدلى منها كفوف بشرية منزوعة الجلد منها، ذات مخالب طويلة طوقت عنقها كأنها تقوم بخنقها.

أما أمجد فبعد خروج العناكب، لم يُغلق باب غرفته مثلهم بل ظل مفتوحًا.

فخرج بتوجس يجري نحو السلم؛ ليصعد فلم يجده، ركض باتجاه الغرف المغلقة؛ لينظر من النافذة فوجد ديانا تبكي وحولها الأفاعي.. قام بالنداء عليها فلم تسمعه.

طرق على بابها حتى سمع صوت دبيب العناكب مرة أخرى يأتي باتجاهه؛ فركض نحو غرفته واحتمى في جدارها وهو يرتجف.. ثم هدأت أصوات أقدام العناكب؛ فخرج مرة أخرى إلى الممر، وذهب إلى غرفة أخرى ينبعث منها ضوء أحمر خافت، وجد صديقه حسام ملقى على الأرض وحوله الأطفال ذوي الأنياب المرعبة يقفون حوله.. خشي أن يقوم بالنداء عليه فيلتفتوا إليه، وخاف أن تأتي العناكب مرة أخرى.

تركه وهو يبكي دون صوت إلى نافذة الغرفة المجاورة، التي كانت سادن داخلها، وجدها تلتصق بالجدار وحول عنقها هذا الكف غير المكسو بالجلد كأنه يد لهيكل عظمي، وحول يدها تلك الأساور وكأنها مقيدة بهم على الجدار...

لا مخرج من البئر، كان يهذي بصوت مكتوم، كلهم يعاقبون يعذبون ولا أستطيع أن أفعل شيئا، أريد الهرب ولا أجد طريقًا له، ثم تعالت ضحكات شيطانية في البئر، فلو كان للشيطان ضحكات لكانت تلك التي سمعها أمجد، ركض تجاه غرفته، فهي إلى الآن المكان الوحيد الآمن هنا، وجلس تحت أحد جدرانها، وظل يبكي من فرط الرعب..

ثم تعالي صوت يشبه صوت الجحيم، قال: لم تبكين، بالكثير ستأتي غدًا وينتهي الأمر، دوّى الصوت في أرجاء البئر، ظل أمجد هكذا يجلس في وضع الجنين طوال الوقت، لا يعرف ماذا يفعل؛ أمسك بقطعة حجرية صغيرة كانت ملقاة على الأرض وكتب على الجدار....

***

بالطبع تستطيعين استئجار سيارة فاخرة حديثة يا سيدتي حتى وإن كان الأمر صعبًا لوجود بعض الإجراءات، لكني سأذللها، قالها المسؤول عن مكتب إيجار السيارات لليليان التي قالت: لكني أريد بها جهاز لتحديد الأماكن، قال لها: نعم سيكون بها هذا الجهاز اطمئني، اتركي لي فقط جواز سفرك والنقود التي اتفقنا عليها.

أخذت ليليان مفاتيح السيارة، ووضعت إحداثيات القرية على جهازها وانطلقت باتجاهها، وبالفعل وصلت إليها بكل سهولة؛ كأنها كانت تحفظ الطريق عن ظهر قلب، حدث ذلك بمساعدة جهاز تحديد الأماكن الحديث، ترجلت من السيارة أمام السور المحيط بالقرية، وحاولت قراءة اللافتة الموضوعة على بابها، أزالت الأتربة من عليها، وقرأت.. قرية إتليدم سابقا شاكر المناوي حاليًا.

كانت الساعة تُشير للحادية عشر صباحًا.. هنا تذكرت اسم جدتها التي وجدته في مذكرات جدها نبيلة شاكر المناوي.. إذن فكل ما ستجده هنا هو ملكها، أزاحت الباب وعادت لسيارتها وأدارت المحرك ودخلت القرية التي عادت طرقها ممهدة، نظرت حولها

فكانت القرية كأن لم يصبها شيء أبدًا. وكأن السيارة تعرف هذا الطريق جيدًا، كانت ليليان تنظر حولها تتفقد منازل القرية الخالية.. لم ترَ أمامها لذا اصطدمت بشيء.

نظرت أمامها، وجدت البئر الضخمة، ترجلت من السيارة؛ لتتفقد الضرر الذي أصاب سيارتها. تفحصت مقدمة السيارة؛ كان يخرج منها دخان كثيف، فتحت مقدمتها فوجدت ماتور السيارة ساخنًا للغاية، ولا يوجد بها قطرة ماء، ثم نظرت إلى البئر.

كانت تجذبها بقوة رغم أنها مثله مثل أي بئر، ثم عادت ببصرها إلى حقيبة العربة لتأخد وعاءً، أخذته لتبحث عن ماء للسيارة، قفز إلى ذهنها فكرة هذه البئر، ومن الممكن أن تكون بها ماء، ذهبت إلى حافتها ونظرت داخلها؛ وبالفعل وجدت الكثير من الماء، نظرت إلى الجهة الأخرى.. كان السلم في انتظارها...

أغلقت السيارة وأخذت الوعاء وهبطت

***

أربع ساعات سأنتظرها في هذا الجحيم الممثل في هذه البئر، أربع ساعات من العذاب ولا أدري ماذا سيحدث بعدها... لكن من يقطن وراء الجدار الذي يحمل رقم واحد، يبدو أن أمامه ستون دقيقة فقط، اقتربت من الجدار ووضعت أذنها عليه، تحاول أن تسمع أي شيء لمعرفة ما يدور داخلها، اهتز الجدار فتراجعت بخطوات سريعة للوراء.. ثم تشكّل الجدار على هيئة وجه قطة تصرخ بها كأنها تريد أذيتها، كتمت صرختها وجلست في رعب تنتظر مصيرها..

أما بالغرفة التي كانت تحاول ليليان سماع ما بها، كانت تجلس ديانا بها، وقد قُيدت يدها بأغلال من الأفاعي، وكان أمامها مباشرة يجلس هو بلحيته البيضاء المميزة، وتجاعيد وجهه التي تعرف من خلالها كبر سنه، وجلسته المميزة القرفصاء، وهدوئه المعتاد.

ظهر لها فجأة من العدم، ووضع أمامه إناءً تتصاعد منه الأدخنة التي كانت تتشكل على هيئة كلمات، تشكلت الأدخنة لتقرأ ديانا:

- ما اسمك؟

- أجابت ديانا.

ثم عاد الدخان ليتشكل كلمة أخرى، أكملي حتى تصلي إلى الجد.

- أجابت ديانا جلال شديد..

عاد الدخان ليتشكل، إذن ما سترينه الآن، هو ما أتى بكِ إلى هنا، وهو أيضا ما سيتسبب فيما سيحدث لكِ.... اختفى الدخان وبإشارة من يد العجوز إلى الجدار تحوّل إلى شاشة عرض سينمائي لكن ما عُرض لم يكن فيلمًا سينمائيًا.

فقد كان لحياتها، فظهرت وهي تحتضن أباها، ولقطات له وهو يضحك معه، ثم لقطات له وهو أصغر سنًا، وكذلك وهي طفلة، ثم وهو يتزوج، ثم قبل الزواج كانت كلها لجلال والدها.. وهو طفل صغير يحمله جدها الذي كان يرتدي جلبابًا، ويمسك في يده عصًا غليظة، ووراءه الكثير من الغفر، ثم لقطات لجدها وهو يجلس أمام رجل يدخن الغليون داخل قصره.. ثم تتوقف شاشة العرض

عند هذه اللقطة ليلتفت العجوز للجدار وعلى وجهه علامات الغضب قبل أن يعود إلى هدوئه مرة أخرى، وتبدأ اللقطة الأخيرة وهم يقفون أمام دار يجلس داخلها العجوز؛ استطاعت أن تتبين ملامحه، لم تتغير، حتى ملابسه لم تتغير.

ثم رأت جدها وهو يلقي بيده بأول شعلة، ورأت ما حدث كله، كانت ترى المشهد كأنها داخله، بكت من هول المشهد واشتعال الدار بالعجوز الجالس في استسلام تام.. اختفت الشاشة من الجدار الذي عاد لطبيعته، وعاد الدخان للتصاعد والتشكل.. لم يتبق سواكم، وقد حان الوقت لحصد ما زرعه أجدادكم، فقد كان له وقت محدد مسبقًا، حاولت أن أترككم، لكن وللحق لم أستطع.. ولن أستطع.

ثم تحوّل الدخان إلى اللون الأسود، وملأت العناكب الغرفة، واحتلت جسدها وشلت حركتها، ثم فتحت العناكب فمها، وقد كان الدخان ينطلق داخله، ثم أغلقت فمها، نظرت ديانا إلى يعقوب وقد جحظت عيناها وتحوّل لون مقلتيها إلى اللون الأصفر كأنهما نيران..

كان العد التنازلي في غرفة ليليان قد قارب على الانتهاء، فلم يتبق سوى ثلاثين ثانية على الانتهاء من الرقم أعلى الجدار الأول، وبعد أن وصل للرقم صفر.. ارتجت الغرفة وانزاح الجدار كاشفًا عما وراءه، كانت ديانا ملقاة على الأرض مقيدة جاحظة العينين، وفمها مفتوح ويخرج منه الدخان الأسود بعدما ماتت.

وضعت ليليان يدها على فمها، وخرجت منها صرخة مكتومة.. وانهمرت دموعها رعبًا قبل أن يعلو صوت أزير فوق الجدار الذي

يعلوه رقم اثنين..

كانت ليليان تتابع العد التنازلي وقلبها يرتجف بل كل جسدها يرتعش.

استيقظ حسام فوجد أمامه هذا الطيف الهلامي الأسود والعناكب تحيط به، واختفى الأطفال من حوله، نظر إلى يده المقيدة هي وقدميه في لوح خشبي، أما الطيف فكان يتشكل أمامه على شكل امرأة حامل ثم أفعى، ثم رجل عجوز لا يتبين ملامحه.. ثم تحدث هذا الطيف قائلًا:

- ما اسمك؟

- أجاب: حسام.

- قال أكمل حتى الجد، قال: حسام محمد إدريس.

اقترب الطيف الأسود الذي يُشكل هيئة العجوز من حسام المقيد، ووضع يديه الاثنتين على جانبي رأس حسام، وضغط عليها بقوة... مما جعل حسام يغلق عينيه ليرى حسام نفسه جالسًا في هذه الدار القديمة، وهناك سيدة تجلس أمام شيخ عجوز ذي لحية بيضاء. والسيدة تطلب منه أن يساعدها في أمر ما، ثم تحوّل المشهد إلى مشهد آخر رآه حسام...

هذه المرأة وهي في طريقها نحو دار العجوز كانت تحمل طفلًا صغيرًا..

ثم مشهد آخر لهذا الطفل في مراحل عمرية مختلفة، منذ أن كان طفلًا، حتى أصبح رجلًا يشبهه تمامًا حتى في شاربه الكث، ولما

لا وهو والده...

ثم عاد مرة أخرى للقرية، كانت جدته تحمل والده وتتحدث مع رجل، ثم تركها هذا الرجل وذهب حاملًا شعلة نارية وذهب مع الكثيرين أمام دارٍ كان يجلس داخلها رجل عجوز، كان يقف بجوار جده الذي ألقى شعلته على العجوز..

ثم فجأة فتح حسام عينيه، كان يجلس أمامه العجوز مثلما رآه في المشهد الأخير وهو جالس داخل الدار وحوله الأطفال ذوي الأنياب الطويلة والرأس الصلعاء.

تكلم أحد الأطفال بصوت رخيم كأنه صوت العجوز قائلًا: نصف دمك قتلني بيده، والنصف الآخر قتلني بصمته.. وتألمت في الاثنين.. وقد حان الوقت فلم يتبق الكثير من الوقت. هنا نظر له العجوز نظرة نارية وعلى وجه علامات الغضب.

وهمَّ بالنهوض، هنا اصطف الأطفال وأمامهم العناكب، وبخطوات بطيئة وبنظرات ثابتة نحو حسام بدأ الأطفال في التهام قدم حسام، أما العناكب فصعدت إلى وجهه ليعبروا داخل جسده من فمه وأذنه وعيناه.

وفي تلك اللحظة كان العد التنازلي لهذا الحائط قد وصل للرقم صفر..

وانزاح الجدار أمام ليليان لترى هذا المشهد المرعب لحسام الذي لفظ أنفاسه الأخيرة، ثم علا صوت الأزيز مرة أخرى معلنًا بدء العد على الحائط رقم ثلاثة.

تمنت ليليان الموت في هذه اللحظات الموت، فهو بالتأكيد أهون مما هو قادم..

ولكن ومنذ متى والموت يأتي بالتمني، أو في الوقت الذي نريده.

***

كانت سادن لا تزال مقيدة بتلك الأساور واليدين تقبض على عنقها، ثم ظهرت أفعى عملاقة تعادل جسد شخص، ولسانها بشري لتسألها عن اسمها.

فحلت اليدين اللاتي تقبض عليها لتستطيع التحدث، قالت سادن:

قالت الأفعى بصوتها الرخيم البشري ما اسم والدتك أجابت: فاتن، قالت الأفعى، وما اسم والدها قالت: طوخي. اقتربت الأفعى زاحفة باتجاه سادن، ومدّت لسانها الطويل البشري؛ لتلتف حول خصرها لتعتصره ألمًا، صرخت سادن من تلك العصرة فحلت الأساور من يدها، وتركت اليدان عنقها، وتحوّل سقف الغرفة إلى شاشه للأحداث؛ فرأت والدتها في صغرها وهي في ،حضن والدها جد سادن، ثم وجدت جدها يجلس مع هذا العجوز، ثم وهو يخرج هذا الصندوق الذهبي بكل ما فيه حتى وصلت إلى مشهد إلقاء جدها شعلته على هذا العجوز، داخل داره قبل أن تختفي الشاشة؛ لتجده يجلس أمامها مرتديًا نفس الجلباب.

ألقتها الأفعى لترتطم سادن بقوة على الأرض، ثم قالت: لقد أخذ جدك أكثر مما ينبغي من خير، لكنه رد هذ بأكثر مما تخيلت من شر لي.. كنت أعلم أن الكل داخله الخير والشر، وراهنت عليه

فخسرت، ثم تقيأت الأفعى قطعًا ذهبية كثيرة أغرقت الأرض كلها.. هنا نهض العجوز الصامت ووراءه العناكب بشكل منظم، ثم تحوّلت الأفعى إلى كتلة لهب شديدة، وعادت الأساور لتشتعل مرة أخرى في يد سادن وقدميها، وبدأ الذهب في الانصهار بفعل كتلة النار الشديدة وذاب على جسدها..

انزاح الجدار الثالث أمان ليليان؛ كان مشهد انصهار الذهب على سادن مهولًا بل بشعًا للغاية.. لم تكن في حاجة لتعرف أنه قد أتي دورها هي، وهي لا تعلم السبب.

لم يكن عقلها يسمح بالبحث عن سبب، ولم تبدأ ساعتها في العد التنازلي، لا لم يحدث، اختفت الساعات والأرقام، وأتت العناكب ذات الرؤوس البشرية، ومعها الأفاعي ذات الألسن البشرية.. كذلك الأطفال منزوعي الأعين واصطفوا أمامها، وظهر العجوز خلفهم جالسا بمنتهى الهدوء، ينظر لها هذه المرة، لم تتحول الجدران إلى شاشات فقد كان العرض خاص بها، لم يكن مثل السابقين، ظهر فجأة رجل يجلس يدخن غليونه وتحت قدميه خدم كثيرين يجلسون على أربع كالحيوانات.

ثم نهض هذا الرجل. الذي كان يشبه كثيرًا الرجل الواقف مع جدتها في الصورة، التي رأتها عندما دخلت الغرفة. وركل هؤلاء الخدم بقسوة.

ثم تغير الأمر وتبدّل سريعًا، فوجدته يحمل جدتها نبيلة وهو يبكي، ثم تحول الأمر لمشهد جنازة مهيب لها.. ثم لهذا الرجل وهو يأكل لحوم ليست عادية، كان يجلس على مائدة طعام ويضع الخدم اللحم له، وهناك مَنْ يُقطع هذا اللحم له، لم يكن

لحمًا عاديا.. لا.. بل كان لحم رجل مما رأتهم يجلسون تحت قدميه.

ثم تحوّل الرجل لمسخ له قرنان بنفس ملامحه، وهو يجتمع برجل آخر وأمامهم لهب ثم اختفى كل هذا وظهر تجمع للناس حاملين المشاعل أمام منزل يعقوب.. وكان هذا الرجل يجلس بعيدًا ولا يزال يشبه المسخ ذي القرنين، وما أن رفع يده حتى ألقى الأشخاص المشاعل؛ لتحرق العجوز الذي كان يجلس في الجهة الأخرى أمامها، كانت تعلم أن كل هذه المشاهد خيالية، تعرض أمامها كأنها سينما حديثة ثلاثية الأبعاد... فهمت أن شاكر والد جدتها كان يشبه الشيطان في صورة إنسان، وهو من قتل الجالس أمامها، ذاك العجوز ذو اللحية البيضاء.

حاولت أن تستوعب الأمر وتتكلم فلم تستطع، هنا ولأول مرة لم يتكلم الطيف أو طفل أو أفعى بل تكلم هو.. قائلًا: إن الحياة تبنى علينا أنا وجدك، لا حياة دون نقيضين، إن ساد الخير لن يشعر الناس بالروعة دون أن يتذوقوا الشر من قبله.

ستجدين أن الثلج ممتعًا لو وضعتي يدك المحروقة من النار به، وستجدين النار رائعة إن كان الجو باردًا ويدك تكاد أن تتجمد ومررت يدك فوقها، لم أحاول أن أجعل خيري يسود، لكن كي يكون الميزان معتدلًا حاولت أن أعطي لهم ما كان يأخذه منهم.. لعل مَنْ أعطيهم يعطون الآخرين، وهؤلاء الآخرون يعطون ما بعدهم، إنها سلسلة لو استجاب لها الناس بعد وقت قصير سيعم الخير دون أن تكون هناك حاجة لتذوق الشر، لكن ما فعله جدك كان هو الأصعب والأقسى؛ فقد أصر أن يكون الشر هو السيد، ولم

يكتف بشره، بل جعل كل من زرعت داخله نبتة خير يسقيها شرًا فحصدها بدلًا مني شرًا، كان هو جزءًا من الشر، وهم كانوا الكل، حاولت مع هؤلاء القوم ففشلت، لكني سأحاول مرة ثانية وثالثة ورابعة.

كل جيل لهم فرصة تأتي لهم مرة واحدة في القرن، إنها طوق نجاة لمن يتشبث به، نعم إن فشلت يدفعون هم ثمن فشلي، لكن لا يعود هذا الفشل لتقصيري، بل لأن سواد قلبهم هو ما يتغلب عليهم؛ فيقطعون يد من أمدها لهم بالخير، ولا يقبلون إلا اليد التي تصفعهم على وجوههم.

ستدفعين الآن الثمن، ثمن غالٍ لو يعلمه جدك لما أصر على شره، لكن لا مقايضة الآن، كان من الممكن أن أمنع شرهم بسهولة، فأنا أملك الكثير من مقاليد الأمر، لكني تركت الاختيار لهم؛ فاختاروا الشر؛ لتستمر سلسلة الشر حتى تصل إلى آخر حلقاتها، وكنتم أنتم آخر حلقة بها؛ لذا عليكِ الآن بتسديد دين جدك ليّ، أما من تريهم حولك فقد قاموا بالسداد....

ثم اختفى يعقوب ومع اختفائه هاج كل من كان في البئر من كائنات، وانقضت جميعها على ليليان يلتهمونها.......

***

جريدة الحدث ٢٠/١٢/٢٠١٩

كتب/ أحمد حسن

الكشف عن لغز اختفاء أربعة شباب في رحلة استكشافية عثر

رجال الشرطة على شاب ملقى داخل أرض زراعية بائرة، على بعد مئات من الأمتار من موقع معسكر الرحلة، التي اختفى من أعضائها أربعة أشخاص.

وكانت المباحث تحاول فك لغز الاختفاء بعد أن اختفى كل من. (سادن صلاح)

و(حسام محمد) و(ديانا جلال) و(أمجد حسين عثمان) بعد يوم من بداية الرحلة.

وبعد تمشيط المنطقة من قبل رجال المباحث؛ لم يستدل على أي أثر لهم، لكن بظهور أحدهم ستكشف الحقائق بالتأكيد.

***

جريدة الحدث ٢٦/١٢/٢٠١٩

كتب /أحمد حسن

لا يزال الغموض يفرض نفسه في قضية اختفاء الشباب. فبعد العثور على أحدهم

وقيام رجال الشرطة باستجوابه وسؤاله عما حدث لهم؛ لم يستطع رجال الشرطة أن يصلوا إلى شيء، فقد كان أمجد يهذي بكلمات غير مفهومة، حول بئر ما.. هبطوا إليها وحبسوا داخلها وأنه تم تعذيبهم وقتلهم أسفل..

الجدير بالذكر أن هذه المنطقة تم تمشيطها من قبل رجال الشرطة ولم يجدوا أي بئر بها..

وتم تحويل أمجد إلى مستشفى الأمراض النفسية والعصبية للوقوف على حالته الصحية والعقلية

***

جريدة الحدث ٢٠/١/٢٠٢٠

كتب /أحمد حسن

إسدال الستار عن قضية العام الغامضة، بعد وصول تقرير من مستشفى الأمراض النفسية يفيد بإصابة: أمجد حسين عتمان باضطراب عقلي شديد.

وعلمت الجريدة من مصادرها داخل المستشفى، بأن أمجد لم يذق طعم النوم منذ أن حضر إليها، وأنه دائم النظر إلى الأرض، ويتحدث إليها، ثم يقوم برفع قدميه سريعًا كأنه رأى شيئًا؛ لذا أودع في المستشفى حتى تتحسن حالته..

وكان والد أحد المختفين وهو جلال شديد قد أصر على مقابلة أمجد؛ لمحاولة معرفة أي شيء يقوده إلى مصير ابنته ديانا المختفية.

الغريب والعجيب أن بعد أن أنهى جلال لقاءه مع أمجد تُوفي في نفس اليوم إثر أزمة قلبية حادة.

وكان أحد عمال المستشفى قد شاهد أمجد يهمس في أذن جلال قبل أن ينهض جلال ليغادر سريعًا، بعدها ظل أمجد يضحك بهستيريا مرددا: سيعود سيعود.

***

عام ١٥٢٥

في مكان ما كان هناك شاب جميل يدعو للخير ويفعله، لا يلجأ إليه أحد ويرده منكسرًا، ليس هذا فقط، بل كان يجتمع بالناس ليحثهم على فعل الخير وحبهم لبعضهم البعض.. كان له قدرات خارقة لمداواة المرضى، وحل مشكلة أي واحد منهم، لا أحد يعلم من أين أتت له هذه القدرات، لكن كان حديثه معهم له فعل السحر.

فشعروا أنهم أمام ساحر لم يقف الأمر فقط عند البشر، فقد كان مرة في حديث مع البشر وكان يستمع له ملك من ملوك الجان فوقع أسيرا لحديثه، بل أراد السير على نهجه في مملكته، فكان يستمع إليه دون أن يشعر به هذا الشاب، الذي أصبح عجوزًا ذا لحية بيضاء بوجه الملائكي، ويعود لمملكته تحت الأرض، ويحدث قومه مثله، ثم بدأ هذا الملك في أخذ أتباعه معه للاستماع للعجوز ورؤية ما يفعله من خير.. حتى تُوفي هذا العجوز وسط حزن الجميع من البشر والجان من القبيلة، فقرر هذا الملك إحياء ذكراه كل مائة عام على الأرض بظهور هذا الملك في هيئة الشيخ البشرية والقيام بما كان يفعله.. وكان دائمًا ما يختار القرى التي يطغى بها الفقر والشر ليظهر بها..

***

عام ٢٠٢٥

بكت السيدة نانسي الفقي الممثلة المشهورة.. ثم قالت:

لم يكن أمامي طريق سوى أن آتي إليك.. رغم أني ذهبت إلى كل الأطباء وإخصائي علم النفس، بل ذهبت إلى ما هو أبعد من هذا، إلى عالمة فلك سافرت لها خصيصًا ولم ينجح أحد في أن يشفني من إصابتي بهذا الأرق، وعدم القدرة على النوم لأيام، والاكتئاب الحاد.. إلحاح خادمتي ووصفها لك بالساحر وعجز كل من ذهبت إليهم لحل أزمتي هو ما جعلني أجلس أمامك الآن، رغم أننا في الألفيـة الحـديثة وأنـا بصـراحة لا أؤمن إلا بالطب، لكن أعيتني الحيل

فماذا أفعل؟!

ابتسـم الشـيخ العجـوز ذو اللحيـة البيضـاء والوجـه الطفولي .... واعتدل في مقعده ثم قال لها: انتظريني هنا دقائق....

ودخل إلى غرفته.

***

تمت

